حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة

العدد 15، ماي 2022

تونس الفتاة تحتفل بعشريّتها

تقرؤون في هذا العدد:

تونس الفتاة وعودة الروح ص. 4-5
فهمي رمضاني

الأستاذ سليم اللغماني يحاضر حول "المعتزلة وإمكانيّة قانون بشري" ص. 6-8
معز جعفر

الآباء البيض والثقافة التونسية. مقال للأب جون فونتين ص. 10-11
ترجمة: حمزة عمر

النسويّة في السّياق العربي: ظروف النّشأة، السّيرورة التاريخيّة وأبرز التحوّلات ص. 12-15
زينب التوجاني

إصلاح التعليم في تونس بين الزيتونة والصادقية ص. 16-19
أحمد الطويلي

شظايا... والرائحة ذاتها ص. 20-22
انتصار المصراتي

ظلّ بعين واحدة ص. 23
رجاء عمّار

هذيان ليلي ص. 24-27
رميساء المرسني

صلوات اللقاء الأخير ص. 28
أسامة نبيل نباوي

لغة الأموات ص. 29
أنيس الهاني

لعبتنا الأولى ص. 30
سوار الغابري

وقفةٌ على شرفةِ الذاكرة ص. 31
ياسين الطنفوري

عشر سنوات... عشر كتب

حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن
جمعية تونس الفتاة

تأسّست في مارس 2021

رئيس التحرير
حمزة عمر

فريق التحرير
أنيس عكروتي
فهمي رمضاني

التصميم
حمزة عمر

مصدر صورة الغلاف
Nawaat.org

للتواصل معنا
redaction@tounesaf.org

تونس الفتاة وعودة الروح

بقلم: **فهمي رمضاني**
أستاذ مبرّز في التاريخ
عضو الهيئة المديرة لجمعية تونس الفتاة
fahmi@tounesaf.org

> ***لقد ذكّرني اسم الجمعية منذ الوهلة الأولى بتلك الحركة الوطنية ذات الطابع الثقافي التي ظهرت بالبلاد التونسية في بدايات القرن العشرين***

كُلّما أسترجع تفاصيل انضمامي إلى جمعية تونس الفتاة، تستحضر ذاكرتي صيف 2018، ففي رأيي لا يُمكن للمرء أن يفهم اتجاه الأحداث وطبيعة قراراته إلا بوضعها ضمن سياقها العام مع ضرورة أخذ مسافة زمنية جيّدة منها. في هذا السياق، وقبل التحاقي بجمعية تونس الفتاة، عشت السنة الجامعية 2017-2018 ودار المعلمين العليا تتوالى عليها المحن من كل حدب وصوب، إذ تعدّدت الأزمات التي عصفت بتلك المؤسسة شأنها شأن البلاد التي كانت تزداد أوضاعها سواء يوم بعد يوم.

تمثلت أولى المحن في بداية تلك السنة الجامعية ولأول مرة في تاريخ دار المعلمين العليا في تأخر انتداب دفعة 2015-2018 وقد كلّفنا ذلك إضرابا دام لأشهر كانت تبعاته سلبية متمثلة في خسارة الدروس ونقص التكوين وغياب الاعداد الجيّد لمناظرة التبريز. هذا على المستوى العام، أما على الصعيد الشخصي، فقد أخذ التعب مني مأخذا عظيما، ففي سنتنا الأولى من التبريز، نطالب بتربص بيداغوجي في المعاهد الثانوية، لذلك كنت أقضي ساعات طوال في إعداد دروس التلامذة في معهد الثانوي نهج مرسيليا بالعاصمة، وفي نفس الوقت كنت أستعد للاختبارات والفروض التي تجرى بين الفينة والأخرى بالجامعة ثم أتفرغ فيما بعد إلى مراجعة دروس اللغة اللاتينية بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية. لقد كان لهذا الكمّ الهائل من الالتزامات والواجبات أثره على جسدي وعلى صحتي النفسية إذ لم أتنفس الصعداء إلا بقدوم الصيف وانتهاء هذه السنة الجامعية التي كنت أشبّهها بالسنة "الشهباء" التي عاشتها الإيالة التونسية سنة 1867.

كنت أحس بتلك "الروح المبتورة" التي أصبحت تعاني قلقا دائما جراء التعب والارهاق واليومي القاتل بالجامعة، لذلك قررت أن أمضي ذلك الصيف (صيف 2018) في العاصمة، لم أشأ أن أعود إلى مسقط رأسي في ريف سيدي بوزيد خوفا من سقوطي في الملل وتكرار نفس الأعمال كل يوم مما قد يزيد في تعكر حالتي. قررت أن أمضي شهر جوان والنصف الأول من جويلية في العاصمة، إذ كنت متلهفا للصيف، فقد كان عقلي مسكونا بهاجس نسيان كل تلك الضوضاء التي ميزت تلك السنة الجامعية، وعادة ما كان يأخذني خيالي إلى البحار والشواطئ والأمسيات الموسيقية والمهرجانات والمحاضرات والأمسيات الشعرية. كنت أبحث عن كل ما يجعلني أبتعد عن الارهاق الذي ألمّ بي طيلة تلك السنة. وإجمالا يمكن القول بأنني حققت في ذلك الصيف كل ما كنت أرنو إليه من أهداف: الترفيه والراحة ومواكبة التظاهرات الثقافية التي حرمتني منها الدروس طيلة السنة الجامعية. وذات مساء وبينما أنا أراقب الغروب في شاطئ المرسى، شعرت بأن تلك الروح المبتورة قد عادت إليها الحياة وبأنني متلهف لخوض تجارب جديدة إلى أن وقعت عيناي على اعلان في الفايسبوك عن لقاء فكري مع الدكتور "شكري المبخوت" بفضاء كرمان يوم 30 جوان 2018 من تنظيم جمعية تونس الفتاة. في هذه الأثناء كنت قد انتهيت للتو من قراءة الطلياني التي أعجبت بها أيما إعجاب كما علمت بأن المبخوت قد أصدر مؤلفا جديدا يتعلق بتاريخ التكفير في تونس. شحذ ذلك كله عزيمتي من أجل الحضور في هذا اللقاء الفكري الذي تنظمه جمعية تونس الفتاة.

لقد ذكّرني اسم الجمعية منذ الوهلة الأولى بتلك الحركة الوطنية ذات الطابع الثقافي التي ظهرت بالبلاد التونسية في بدايات القرن العشرين والتي تزعمتها مجموعة من الشباب يحركهم الطموح المتوقد من أجل تغيير الأوضاع نحو الأفضل. حضرت ذلك اللقاء الفكري الذي كان متميزا نظرا لما أثير من مسائل وقضايا مُهمّة خلال النقاش. ولمّا انتهى التقيت بأعضاء الجمعية اللذين كان جلهم من الشبان ولعل ذلك كان مفاجأة لي، فقد حضرت لقاءات عدّة أشرفت على تنظيمها جمعيات مختلفة والتي كانت أغلبها يفتقر إلى حضور العنصر الشبابي. كانت تونس الفتاة استثناء في هذا الجانب لذلك لم أتردد منذ ذلك اللقاء الأول في الانضمام إليهم وهكذا كان الأمر.

اندمجت سريعا في صلب الأسرة الشبابية لتونس الفتاة وكان ذلك في سبتمبر 2018 مع بداية سنتي الجامعية الأخيرة في دار المعلمين العليا 2018-2019 والتي كانت لا تشبه البتة السنة المنصرمة. لقد كانت انبعاثا جديدا وولادة بروميثوسية بروح محبّة للحياة ومتطلعة إلى التغيير وشغوفة بكل ما يتعلق بالثقافة والمجتمع المدني. حينما أتذكر ذلك الآن، أقول بأنني قد أحسنت التقاط اللحظة التاريخية فتزامن رغبتي للخروج من ذلك القلق الذي سببته تلك السنة الجامعية، مع انضمامي لتونس الفتاة والانخراط في مشروع جمعياتي جديد ولّد عندي روح جديدة .

ففي دار المعلمين العليا بادرت بتأسيس نادي التاريخ والحضارة الذي أصبح أهم

نادي يهتم بتنظيم محاضرات ولقاءات فكرية ويبث حياة ثقافية جديدة في الجامعة، أما بالجمعية فقد اقترحت عليّ الصديقة سوسن فري التي كانت آنذاك نائبة رئيس الجمعية تأسيس منتدى فكري يعالج أهم القضايا الفكرية والحضارية التي تشغل الفكر العربي. رحّبت بالفكرة وتحمست لها أيما حماس، فأصبح المنتدى الفكري سيزيف هاجسا يسكنني وجزء من ذاتي، لذلك عملت أنا والصديقة سوسن فري على إنجاحه ليكون المولود الجديد فخرا للجمعية.

كان هذا المنتدى فرصة كذلك للتواصل والحوار مع أهم أساتذة الجامعة التونسية مثل حمادي بن جاءبالله ولطفي عيسى وآمال قرامي ويوسف الصديق وزهية جويرو وآخرين. وقد أسهم ذلك في تعميق تفكيري بخصوص عدة مسائل وقضايا حضارية وتاريخية ونموّ ملكة النقد عندي دون أن أنسى- أن كل اللقاءات الفكرية والمحاضرات قد ساعدتني للإعداد الجيّد لمناظرة التبريز. ويبدو أن المميز في هذا كله أنني كنت أنشط بدار المعلمين العليا وبتونس الفتاة في نفس الوقت، لذلك كنت أشعر بأنني أنهل من معينين: الجامعة أولا والمجتمع المدني ثانيا، كل ذلك جعل من تلك السنة سنة استثنائية بكل المقاييس، فقد اختتمت بالحصول على شهادة التبريز في التاريخ والالتحاق بالتعليم الثانوي وهي خطوة مهمة في الطريق نحو تحقيق أحلام أخرى .وبمجرد التحاقي بالتعليم الثانوي، أصبحت مكبلا بواجبات جمة من إعداد للدروس إلى إصلاح الفروض إلا أن ذلك لم يفت في عضدي ولم يثن عزيمتي الطامحة إلى تقديم المزيد من الجهد والوقت للجمعية، لذلك لم أتخل عن دوري بالجمعية الذي لم أعتبره التزاما وإنما فعلا يضفي على حياتي معنى. في نفس السياق، أصبحت الجمعية بعد سنة من انضمامي إليها جزءا مني أرعاها وأحاول النهوض بها. لم تكن كذلك علاقتي بأعضاء الجمعية فاترة، بل توطدت مع مرور الأيام لتصبح علاقة روحية فهم أصدقاء وإخوة أتشارك معهم أفراحي وأحزاني.

أوّل نشاط لمنتدى سيزيف مع المفكّر يوسف الصدّيق. المصدر: أسماء الغربي/تونس الفتاة

في صيف 2019 وبعد موسم ثقافي ناجح من حيث كل المقاييس، توجهنا إلى مدينة بنزرت حيث انتظمت فعاليات الجامعة الصيفية الأولى التي نظمتها جمعية تونس الفتاة والتي كانت تحت عنوان "لنتدبر ثورتنا". كانت تلك الجامعة الصيفية من أجمل اللحظات التي عشتها بمعية أصدقائي من الجمعية حتى أنني في بعض الأحيان أعود إلى ألبومات الصور لأستحضر تلك الأوقات السعيدة بمدينة بنزرت. انتهت سنة 2019 معلنة عن مجيء وباء كورونا اللعين الذي سيحدث شللا في كل القطاعات ومنها القطاع الثقافي.

لا أعلم اليم إن كانت ستنتهي جائحة كورونا قريبا أم أنها لا تزال مستمرة، لكنني لا أزال أتساءل كلما عدت إلى الموسم الثقافي لسنة 2019 عن سر ذلك الاندفاع البرومثيوسي الذي تملكني آنذاك : أنشطة تلو الأنشطة، محاضرات بدار المعلمين العليا، مواكبة لأهم التظاهرات، إقبال بشغف على دروس التبريز.

وعلى الرغم من أننا قد اضطررنا لايقاف نشاطنا طيلة الجائحة إلا أنني بادرت في مارس 2021 بإعداد مشروع جديد للمنتدى الفكري سيزيف تحت عنوان "التاريخ من رحاب الاكاديميات الى الفضاء العام" هدفه اخراج التاريخ من الجامعة ومن الفضاء الأكاديمي نحو الفضاء العام من أجل تناول قضايا إشكالية في تاريخ تونس وتحرير كذلك التاريخ من هيمنة الذاكرة وسطو السياسي .

إجمالا للقول أشعر اليوم وأنا بصدد تحرير هذه الشهادة، بأنني جزء لا يتجزأ من الجمعية، إذ يتملكني شعور بأنني مستعد للمضي بتونس الفتاة نحو آفاق أخرى تجعل منها محركا قويا للتغيير في الواجهة الثقافية وفي صلب المجمع المدني. ولعل ما يدفعني إلى ذلك هو استحضاري دائما لشباب تونس الفتاة في بداية القرن المنصرم والذي قاوم الاستعمار وحلم بالتغيير وبغد أفضل للوطن العزيز، لذلك أعتقد بأن حلمنا سيبقى واحدا وروحنا ستظل فتية حية تنبعث في كل مرة أقوى مما كانت عليه.

> ”
> *حلمنا سيبقى واحدا وروحنا ستظل فتية حية تنبعث في كل مرة أقوى مما كانت عليه*
> “

الأستاذ سليم اللغماني يحاضر حول "المعتزلة وإمكانيّة قانون بشري"

بقلم: **معز جعفر**
محام مختصّ في القانون الجبائي
jaafar@tounesaf.org

> الحوار حول المعتزلة أو غيرهم لا يجب أن يكون حوارا حول حقيقة الإسلام

انتظمت يوم 30 جانفي 2013 بكلية العلوم القانونية والسياسية والاجتماعية بتونس محاضرة بعنوان »المعتزلة وإمكانية قانون بشري « نظّمتها كلّ من جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور. وقد ألقى المحاضرة السيد سليم اللغماني أستاذ القانون العام والعضو السابق بهيئة الخبراء بالهيئة العليا لتحقيق اهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي. وقد عرّف بأصول هذا التيّار الفكري الاسلامي كما عمل على إيضاح الفوارق التي تميز فكر المعتزلة عن بقية الفرق الإسلاميّة الأخرى مشددا على أن المعتزلة ساهموا بشكل كبير في التمهيد إلى قيام قانون بشري على الرغم من أنّ سلطتهم كانت محنة على من خالفهم.

في بداية المحاضرة، تعرّض الأستاذ سليم اللغماني إلى ما كتبه المفكر المغربي محمد عابد الجابري في تصنيفه لبنية العقل العربي حيث اعتبر العقل البياني (علم الكلام وعلم الفقه دون التمييز بين الأشاعرة والمعتزلة) العقل المهيمن على العقل العربي. أمّا العقل العرفاني فيكرّس استقالة العقل بينما يعتبر الجابري العقل البرهاني أرقى مستويات العقل العربي. ويبدو إدراج فكر المعتزلة ضمن العقل البياني قابلا للنقد، خاصة للعلاقة الّتي تربط الفلسفة الإسلاميّة بفكر المعتزلة.

وتعرّض الأستاذ سليم اللغماني إلى تنوّع الأفكار عبر التاريخ الإسلامي كبداية لتطرقه للفكر المعتزلي الذي يهيمن عليه جانب عقلانية الفكر، واعتبر المحاضر أنّ الحوار حول المعتزلة أو غيرهم لا يجب أن يكون حوارا حول حقيقة الإسلام، وأنّ المعتزلة يمثّلون تاريخ الفكر الإسلامي لا مستقبله، وفكرهم قابل للنقد والتطوير.

في كيفية ظهور هذا الفكر، بيّن الأستاذ اللغماني أنّ نشأة المعتزلة تعود إلى الثلث الأول من القرن الثاني للهجرة أي في أواخر العصر الأموي قبل أن تزدهر الفرقة في العصر العباسي وكان ظهورها متزامنا مع التطرق لمسألة دينية ذات خلفية سياسية ألا وهي حكم مرتكب الكبيرة وبالخصوص إذا كان حاكماً (بمعنى كيف يمكن اعتبار مرتكب الكبائر اهو كافر ام مؤمن؟) ، المعتزلة اعتبروا ، أن مرتكب الكبائر على »منزلة بين المنزلتين «أي أنه مخلد في النار ولكن يعذب دون درجة عذاب الكفار. وأضاف الأستاذ اللغماني بأن الخوارج اعتبروا مرتكب الكبيرة كافرا مخلدا في النار، وبأن المرجئة اعتبروه مؤمناً ويرجئون إلى الله الحكم عليه يوم الحساب. والموقف من هذه المسألة له انعكاس سياسي، إذ أنّها تتعلّق بالحكم على من شاركوا في الفتنة الكبرى، وعلى الحكم الأموي الّذي بدأ مع معاوية بن أبي سفيان. وبموقفهم هذا، كان المعتزلة معارضين للحكم الأموي لكنّهم أقلّ تطرّفا من الخوارج والشيعة.

ثم تطرق الأستاذ المحاضر إلى فرق المعتزلة وميّز بين المعتزلة البصريين الذين اعتبروا فضل الخلفاء الراشدين يأتي حسب ترتيبهم والمعتزلة البغداديين الذين فضلوا عليا بن أبي طالب على بقية الخلفاء لذا فهم قريبون من الشيعة الزيدية. بعد هذا التفريق، ذكر الأستاذ اللغماني الأسماء الّتي أطلقت المعتزلة وقال بأنهم عرفوا كأهل للتوحيد والعدل وأهل الطبائع (أي الحسن والقبيح في طبائع الأشياء ذاتها) وبالمتكلمين (لأنّهم أوّل من اعتنى بعلم الكلام).

وتعرّض الأستاذ اللغماني إلى تعريفات علم الكلام سواء عند الغزالي وإبن خلدون أو عند المستشرقين (كغارديه وأناواتي) الّتي تجعل من علم الكلام تمجيدا دفاعيًا عن العقيدة الإسلاميّة. وبيّن المحاضر أنّ هذا التعريف جزئي ويصف المآل النهائي لعلم الكلام بعد تدهوره في حين أنّ هذا العلم كان يهدف إلى أن يكون مركز العلوم الشرعيّة، وقد كان أبو حنيفة يسمّيه الفقه الأكبر، ولم تستقّر تسمية هذا العلم لعلم الكلام إلا في القرن الثالث للهجرة.

في حديثه عن مصادر فكرهم، ذكر الأستاذ المحاضر بأنّه إلى حدّ قريب، كانت أغلب المراجع عن المعتزلة كتابات أعدائهم (الأشاعرة، الحنابلة والظاهرية) ومع ذلك، فقد وصلتنا بعض المراجع المباشرة الّتي كانت لها أهميّة في تبيان أفكارهم ككتاب الإنتصار لأبي الحسن

المصدر: تونس الفتاة

الخياط وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار إلى جانب تفسير الزمخشري للقرآن الكريم، والّذي ان له تأثير على عدّة مفسّرين آخرين من غير المعتزلة كمحمّد الطاهر بن عاشور.

ثم تناول الأستاذ اللغماني بالشرح أصول المعتزلة الخمس:

ولأصل الأوّل هو التوحيد وقد قال الأستاذ اللغماني بأن المعتزلة كانوا غلاة في التوحيد من خلال رفضهم كل تشبيه للذات الإلهية . ومن ذلك كل آية توحي بعكس ذلك يتم تأويلها خلافاً لظاهر النص وقدم الأستاذ المحاضر مثالاً من آية قرآنية " الرحمن على العرش استوى"[5 سورة طه] يعتبرها المعتزلة استعارة وذلك عكس تفسير الحنابلة والوهابية.

كذلك أضاف الأستاذ اللغماني في شأن هذا المبدأ رفض المعتزلة تعدد القديم و رفضهم فكرة أن القرآن قديم قدم الله ولذلك قالوا أنّ القرآن مخلوق.

أمّا الأصل الثاني، فهو العدل، وقد أرجأ المحاضر الحديث عنه بعد استيفاء باقي الأصول.

في الأصل الثالث وهو الوعد والوعيد، قال المحاضر بأن المعتزلة يرفضون فكرة المرجئة وبأن طاعة الله تدخل الجنة ومعصيته تدخل النار، وإلا كان وعده ووعيده لغوا وهو ما يتنزّه الله عنه.

الأصل الرابع وهو المنزلة بين المنزلتين، وقد تطرق له المحاضر عند حديثه عن نشأة المعتزلة.

في الأصل الخامس وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الأستاذ اللغماني أنّه يجب أن يتم، حسب المعتزلة، باليد أو باللسان أو بالقلب (أضعف الإيمان)

وبالرجوع إلى الأصل الثاني (العدل الإلهي)، ذكر الأستاذ المحاضر أنّ المعتزلة يعتبرون الله عادلا، بل أنّ الله عدل. وكلّ ما يفعله الله له غاية وهي لا يمكن أن تكون إلا الأصلح لخلقه. ويعتبر المعتزلة أنّ أفعال الله كلّها حسنة وأنّه أوجب على نفسه العدل، وأنّ قدرته لا يمكن أن تخالف ما أوجبه على نفسه. وبما أنّ الله سيحاسب الإنسان على أفعاله، فإنّ ذلك لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت للإنسان حريّة الاختيار بين الخير والشرّ، والإنسان بذلك مخيّر، خالق لأفعاله. وحسب المعتزلة، خلق الله الكون وفق نظام عقلاني يمكن للعقل البشري اكتشافه. ويوجد الحسن والقبيح في طبيعة الأشياء ذاتها، وبذلك يمكن للعقل البشري اكتشاف الحسن في الأشياء وجعلها واجبة عليه (التحسين) واكتشاف القبيح فيها وتحريمها (التقبيح). ويعتبر المعتزلة أنّ الوحي لا يفرض الواجب، بل فقط يعلم به، والوحي بذلك لطف إلهي يعلم الإنسان بما يمكن أن يكتشفه عبر عقله. فالعقل عند المعتزلة مقدّم على النقل، وبذلك يكون الإنسان مكلّفا قبل ورود الوحي. وبما أنّ الحسن والقبيح يوجد في الأشياء ذاتها ويمكن للعقل البشري اكتشافهما، فذلك يعني القول بوجود قانون طبيعي يستنتجه الإنسان عقلا من ملاحظته

> *"حسب المعتزلة، خلق الله الكون وفق نظام عقلاني يمكن للعقل البشري اكتشافه. ويوجد الحسن والقبيح في طبيعة الأشياء ذاتها"*

للأشياء.

وقد وضّح الأستاذ اللغماني هذه الفكرة من خلال رسم هرمي في قمّته الله وفي قاعدته الإنسان والطبيعة.

واستدل المحاضر بأقوال الشهرستاني الذي قال في المعتزلة "واتفقوا على أن الله تعالى لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد" وكذلك " واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل ".وإستدل الأستاذ اللغماني في ذلك بأقوال القاضي عبد الجبار وهو من أبرز علماء المعتزلة الذي قال في الأدلة الشرعية "أولها العقل لأن به يميز بين الحسن والقبح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع" وقال في خصوص تكليف الله للإنسان "يقدرهم على ما كلفهم ويعلمهم صفة ما كلفهم ويدلهم على ذلك ".

وأشار الأستاذ اللغماني أنه بوصول المتوكل للسلطة أصبح المعتزلة في محنة واندثرت أفكارهم وجاءت أفكار الأشعرية لتحل مكانها فجاء أبو الحسن الأشعري الذي بنى الفكر الإسلامي على أساس تغليب الإرادة الإلهية على العقل الإلهي. وأضاف المحاضر عن الأشعرية بأنه لا تلازم عندهم بين أحكام الله وما تدركه العقول وبأنّه لا يمكن إدراك وجود الله إلا من خلال إرادته وإرادته تتجلّى من خلال النصّ. فالأشاعرة جعلوا من الوحي لا مجرّد لطف بل مناط التكليف وقالوا بأنّ إرادة الله مطلقة والإنسان لا يخلق أفعاله بل يكسبها، ونظريّة الكسب هذه مبهمة وتبطن القول أنّ الإنسان مسيّر. ويرفض الأشاعرة السببية العلميّة لأنّهم يعتبرون في ذلك مساسا بقدرة الخالق. ويعتبرون قوانين الطبيعة مجّرد عادات، لا قوانين ثابتة، يمكن أن تخرق، وذاك فهمهم للمعجزة.

وقال الأستاذ اللغماني قبل ختم المحاضرة أنّه لا يمكن المفاضلة بين فكر المعتزلة وفكر الأشاعرة من حيث تماسك الأفكار ذاتها فكل منهما متّسق مع منطلقاته لكن من منظور النتائج العملية، أكد المحاضر أن المعتزلة مهدوا لإمكانية قانون بشري بقراءة لطبيعة الأشياء في حين أنّ الأشاعرة جعلوا النصّ المصدر الوحيد للحكم. وأشار الأستاذ المحاضر إلى أن تطوّر الفكر الإسلامي كان عكس ما كان عليه الأمر في الفكر الغربي، حيث كانت للقدّيس أوغسطين أفكار مماثلة لأفكار الأشاعرة في القرن الرابع ميلادي، قبل أن يأتي توماس الأكويني في القرن الثاني عشر بأفكار مماثلة لآراء المعتزلة.

وفي معرض اجابته على الأسئلة الّتي طرحت عليه في النقاش، أشار الأستاذ اللغماني أنّه من المثير للفضول أنّه رغم أنّ المعتزلة ألّفوا في مجال علمي الكلام وأصول الفقه، في حين أنّهم لم يتركوا لنا تآليف في الفقه، مشيرا إلى أنّ أغلب المعتزلة كانوا حنفيي المذهب الفقهي.

وأشار المحاضر إلى أنّ فكر أبي حنيفة لم يصل إلينا إلا عبر تلميذيه أبي يوسف والشيباني الذين كانا متأثرين بفقه الأثر، متسائلا عمّا إذا كان أبو حنيفة معتزليا لا سيّما وأنّه كان يقول بالرأي، والرأي في ذلك الأوان كان حرًا ولا ينحصر في القياس كما اصبح فيما بعد.كما أشار الأستاذ اللغماني إلى أنّ المعتزلة عاشوا في إطار إمبراطورية وبالتالي فإن فكرهم يتنافى مع قيام دولة ومفهوم حديث للديمقراطية. كذلك نوه المحاضر بالحرية الفكرية التي كانت سائدة في القرن الثاني للهجرة إذ كان الجدال يقام مع المسيحيين واليهود وغيرهم من الديانات وأضاف المحاضر بأنه يمكن على الأقل العودة لهذا المناخ الذي كان سائداً.

كذلك أشار الأستاذ اللغماني إلى أن من أسباب فشل المعتزلة نخبويتهم إذ كان خطابهم عصيًا على العامة. فالعقلانية حسب رأيه عزلت نفسها من خلال التمييز بين خطاب الخاصة وخطاب العامة. وأضاف المحاضر أنّ الاعتزال الحقيقي هو عزلة العقل، وهي العزلة الّتي طالب بها إبن رشد.

وختم الأستاذ اللغماني اللقاء بإشادته التفاعل الاجتماعي الموجود حالياً و أنه (التفاعل الاجتماعي) ليس كسبا للدولة بل هي كسب للشعب. وأضاف بأننا اليوم في تونس نبني في ذاتيتنا وهي أحسن طريق للحداثة الأصيلة عكس ما رسخ سابقاً من حداثة سلطوية.

> "
> *المعتزلة مهدوا لإمكانية قانون بشري بقراءة لطبيعة الأشياء في حين أنّ الأشاعرة جعلوا النصّ المصدر الوحيد للحكم*
> "

أنشطة جمعيّة تونس الفتاة خلال شهر رمضان

سهرة شعرية رمضانية
مع الشعراء: حمزة عمر، رفقة الوراسي، عبير الكوكي، معتز منصور، معز الحامدي، وجدان عيدودي، ياسين القادري
تقديم: بسّام زيدي
15 أفريل 2022
دار الثقافة ابن رشيق

محاضرة: وسيلة بورقيبة: اليد الخفيّة
المُحاضر: د. نور الدّين الدقي
تقديم: فهمي رمضاني
23 أفريل 2022
دار الثقافة ابن رشيق

الآباء البيض والثقافة التونسية. مقال للأب جون فونتين

ترجمة: **حمزة عمر**
رئيس جمعية تونس الفتاة
hamza@tounesaf.org

> *كان الأمر يتعلّق بالتخلّص من الأحكام المسبّقة والاعتراف بالطموحات المشروعة للتونسيين، وهذا ما عزّز التعاطف مع الفريق من قبل مثقّفين يعدّون غير قريبين من الكنيسة*

سأبدأ من النهاية. سجّل معهد الآداب العربية (إبلا)، الّذي أسّسه كهنة كاثوليكيون أوروبيون، دخوله العام الماضي في الموسوعة التونسيّة الّتي نشرها بيت الحكمة، لا في مدخل حرف الميم ("معهد") وإنّما في مدخل حرف الألف ("إبلا"). كما أنّ مجلّة إبلا، الّتي أسسها سنة 1937 نفس الكهنة الكاثولوكيون الأوروبيون، يديرها اليوم فريق من التونسيين المسلمين من غير رجال الدّين. إنّنا نعتبر هذين الحدثين علامة على نجاحنا

النشأة

وصل الآباء البيض إلى تونس سنة 1875. كان الكاردينال لافيجيري الّذي أسّس التنظيم في الجزائر قبل ذلك بسبع سنوات قد أرسلهم إلى قرطاج لإنشاء متحف، وإلى المرسى لإنشاء معهد تحوّل فيما بعد إلى معهد كارنو بتونس، وإلى تيبار لإنشاء مزرعة مازالت تنتج خمرا رفيعا (La Thibarine).

انطلقت إبلا في 18 نوفمبر 1926 في مزرعة بوخريص قريبا من المقبرة الأمريكية الحالية بالمرسى تحت مسمّى "بيت الدراسات". كان الأب هنري مارشال صاحب الفكرة بعد فشل الآباء البيض في غرداية نتيجة لجهلهم بالعربيّة الفصحى. أخذت الدار اسم معهد الآداب العربية في 30 مارس 1931، وهي تشغل مقرّها الحالي بنهج جامع الهواء منذ 15 فيفري 1932.

كان الآباء البيض يحضرون دروسا بالخلدونيّة. كان تكوينهم في اللغة العربية يعتبر محوريّا، إذ أنّ اكتسابهم صفة المستعربين كان شرط أهليّتهم. قدّم الأب جوزيف سلّام، وهو مصري الجنسيّة، محاضرة أمام النادي الأدبي لقدماء الصادقية يوم 4 فيفري 1929 حول "ديكارت وطه حسين" وأعاد الكرّة أمام الخلدونية يوم 4 مارس، وجادله حينها شاب يدعى الحبيب بورقيبة. وقد نُشر مقال احتجاجي ضدّ الآباء في القيروان.

منذ 1928، كانت هناك جذاذات توزّع على طلّاب إبلا لتيسير اطّلاعهم على البيئة التونسية والثقافة العربية والديانة الإسلاميّة. ضمّت الجذاذات حكايات وأشعارا وأمثالا وأحاديث مترجمة إلى الفرنسية مع مقدّمات ومسارد (glossaires)، وشكّلت سلسلتين: "الكرّاسات التونسية" (Les Cahiers Tunisiens) و"الوثائق التونسية" (Documents Tunisiens).

التطوّر

عندما نشر الطاهر الحدّاد كتابه حول المرأة، كتب الأب الإيطالي روبارتو فوكا مقالة في تقريظه في مجلّة "في أرض الإسلام" Islam'Terre d En، وكذلك فعل الأب أندري ديمرسمان في لاديبيش Dépêche La. سرت حينها شائعات أنّ الكاتب الحقيقي للكتاب هو من الآباء البيض وهو تحديدا جوزيف سلّام. في الحقيقة، لم يساند زملائي الكاتب لموقفه التقدّمي من المرأة، وإنّما لأنّه هاجم قوقعة جامدة للاعتقاد الإسلامي كما بدت لهم حينها. كان ما يشدّ إلى الحدّاد تمييزه بين الحقائق الثابتة حول الله والتطبيقات العمليّة من قبيل تعدّد الزوجات. بعد خمسين عاما، نجد صدى لهذا الرأي في جريدة "الصدى" في عدد 2 أكتوبر 1992. كان الزملاء يتعرّفون على الثقافة عبر حفلات الموسيقى العربية الكلاسيكية (المالوف) وينشرون عنها في المجلّة.

اعتبر البعض إبلا هيكلا يتبع السياسة الخارجية الفرنسية، ولكنّه في الحقيقة كان تحت وصاية الفاتيكان. في 16 نوفمبر 1954، أثناء زيارة الكاردينال تيسران، سكرتير الفاتيكان للكنيسة الشرقية، كان الهادي نويرة والصادق المقدّم من بين من حضروا الندوة الّتي أقيمت بهذه المناسبة.

بعد الحرب، انقسمت أنشطة إبلا إلى قسمين. انتقل بيت الدراسات إلى منّوبة سنة 1948 ثمّ إلى روما سنة 1964 أين تحوّل إلى المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية. أصبح البيت مركزا للأنشطة الثقافية والاجتماعية: دروس مسائية، تعاون مع الاتحاد العام لطلبة تونس، أنشطة خيريّة.

المجلّة

كانت مجلّة إبلا عاملا هاما في نسج العلاقات بين المسلمين والنخبة الأوروبية المسيحية. بدأت المجلّة عام 1937 كنشرة إخبارية منسوخة موجّهة للأوروبيين الّذين يريدون معرفة التونسيين. كان المعمّرون يقرؤونها رغبة منهم في حسن استخدام عملتهم الفلاحيين. كانت المجلّة تبحث عن إنارة وتقريب الطائفتين: استيعاب المجتمع، دليل لتواصل معمّق، إدراج الأخلاق في بعدها العالمي. كانت هناك مجموعة موازية "البلاد" تنشر بالعامية التونسية.

على مدى خمس عشرة سنة، كانت المجلّة ترشد القارئ على "الطرق الكبرى للتفاهم الفرنسي التونسي"، مقدّمة لكلّ مخاطبيها إمكانية نشأة عالم جديد يمرّ عبر معرفة أفضل للمجتمعات الإنسانية. كان الأمر يتعلّق بالتخلّص من الأحكام المسبّقة والاعتراف بالطموحات المشروعة للتونسيين، وهذا ما عزّز التعاطف مع الفريق من قبل مثقّفين يعدّون غير قريبين من الكنيسة، مثل إيلي كوهين حضريّة وأندري دوران أنجليفال وشارل أندري جوليان.

بعد تحرير تونس في 1943، طُرح المشكل التونسي بشكل أكثر حدّة. اتّهم الرأي الفرنسي الآباء البيض بدراسة ارتقاء التونسيين وإرشادهم إلى أفكار لم يكونوا ليتوصّلوا إليها بأنفسهم. كان هذا اللوم ساذجا ومبالغا فيه. لم يكن التونسيون في حاجة إلى الآباء البيض للوعي بخصوصيّتهم. شكّل موقف الأب ديمريسمان في 1 جانفي 1951، لمّا دعا إلى "الأخوّة والعدالة"، منعرجا. عندما كان اللفيف الأجنبي يمشّط الوطن القبلي خلال أحداث جانفي 1952، كانت زيارة ديمرسمان إلى المنطقة تجسيما للمبادئ الّتي أعلنها. في السنة الموالية، وبمناسبة حوار نظّمه فرانسوا مورياك في المركز الكاثوليكي للمثقّفين الفرنسيين حول مشاكل شمال أفريقيا في الضمير المسيحي، طُلب منه توضيح موقفه فأجاب بما يلي:

"جاءت اللحظة كي نراجع ضمائرنا... ليس لأيّ مسيحيّ الحقّ في الاصطفاف الأعمى المخالف لمبادئه بدعوى الانضباط للمجموعة أو لرأي الأغلبية... لا يمكن للسياسة أن تفلت من عقال الأخلاق".
بعد إعلان هذا الموقف، شُنّت حملة صحفية عنيفة في الجرائد الموالية للحماية، لكنّ الصحافة الليبرالية والتقدّمية ساندته.
كانت عبارة "إلزم موهفك]غرفة المقدّسات[" تظهر في عناوين الصحف. في هذه الآونة، تعدّدت الدراسات الهامة الّتي نشرتها مجلّة إبلا حول الشخصيّة التونسية.
تميّزت الفترة الّتي تلت الاستقلال بتدهور حلقة الصداقات التونسية حتّى اختفائها في 1964. كان أربعون تونسيا قدّموا في إطارها محاضرات كانت تجلب جمهورا يتراوح بين ثمانين ومائة شخص. خصّصت المجلّة حيّزا أكبر لمشاكل تونس و"شخصيّتها القاعدية" والخصائص المميّزة للتونسيين وتشكّل فكرة الوطن في تونس ونشأة الوعي الوطني. كانت المجلّة تودّ أن تكون مرآة بلد يعيش استقلاله وحريصة أن تكون في قلب الحدث.

الثقافة التونسية

تواصل هذا التطوّر وكان مرتبطا بالأشخاص الّذين يعملون في إبلا وبتكوين مديرها. تبعا لذلك، تغيّرت طريقة مساهمتها في معرفة الثقافة التونسية. يمكن تقسيم هذا التطوّر إلى مراحل. منذ العدد الأوّل في أفريل 1937، كان هناك مقال حول "الطوائف اليهودية والمسيحية زمان محمّد". بتصفّح 30000 صفحة من المجموعة، يمكن أن نستخرج بعض الأرقام.
في الأعوام الستّة الأولى، نشرت المجلّة ثلاثين مقالا حول الأمثلة والأحاجي والحكايات وعشرين حول المرأة و21 حول المشاكل الفلاحية و18 حول التقاليد. قامت المجلّة بتسجيل نصوص بالعامية التونسية لا يمكن العثور عليها في أيّ مكان آخر.
في سنة 1944، بدأت مرحلة تتركّز على ثلاثة مجالات: الحضارة العربية مع مداخلات حول المفكّرين المسلمين (60 مقالا في عشرين سنة)، الإثنوغرافيا وعلم الاجتماع الميداني (80 مقالا في عشرين سنة) والفولكلور (60 مقالا في عشرين سنة). ظهرت بعد ذلك الثقافة بأشكالها المتعدّدة: سينما، مسرح، موسيقى، رسم، شباب طلّابي، امتحانات مدرسية، مكتبات، توثيق، رياضة.
منذ 1960، حظي 44 كاتبا تونسيا بتقديم مصحوب بمختارات من كتاباتهم. بين 1976 و2010، كان هناك تقديم شامل. شمل عدد خاص حول الإسلام بتونس سنة 1966 مساهمات خمس شخصيّات بارزة. في السنوات الأخيرة، كان هناك تركيز على التاريخ مع ملف خاص حول القيروان في عيون الأجانب.
في الثلاثية الثانية من 1953، نشر أندري ديمرسمان مقالا بعنوان "ستّون عاما من الفكر التونسي- عبر المجلات الناطقة بالعربية". أقرّ محمّد مزالي أنّ هذا المقال دفعه إلى اتّخاذ قرار نشر مجلّة "الفكر" بشكل منتظم. عند إعادة تهيئة الأحياء المحاذية لميناء حلق الوادي في 1967، انتشر خبر مفاده أنّ المشروع يتضمّن هدم الكرّاكة، حصن شارلكان. ارتعب بول صباغ وحرّر مقالا حول تاريخ الحصن وطلب منّا نشره على وجه السرعة. قمنا بتغيير فهرس العدد الّذي كان على وشك الصدور ووشّحنا المقال بصور. وصل العدد بين يدي بورقيبة الّذي غضب وأمر بتغيير المخطّط. بدافع الفضول، قدّم مقالان لرايموند بار سنة 1954 خلاصة عن الاقتصاد التونسي.
نشرت المجلّة سبعة مقالات حول ابن سينا وعدد خاصا حول الغزالي وخمسة مقالات حول التصوّف الإسلامي وأربعة مقالات حول مفكّرين مسلمين معاصرين كما قامت بنشر أوّل محاولة في النقد التاريخي حول ألف ليلة وليلة.

خاتمة

قبل أن تحدّد خطّ عملها الحالي، تردّدت إبلا لعدّة سنوات حول التوجّه الّذي ستتبعه. وعندما تمّ تحديده، تطلّب الأمر اختيار الفريق الّذي سيعمل على تجسيده، ولم يتمّ ذلك دون صعوبات.
تاريخ إبلا هو تاريخ فريق دولي. ربّما يندرج عملها في إطار تطوّر الكنيسة الكاثوليكية عبر إدارة الفاتيكان أكثر منه في إطار العلاقات التونسية الفرنسية.
النقطة الثالثة تتعلّق بالتناغم المنشود بين ضوابط علمية تتشدّد شيئا فشيئا وبين تعاطف معلن مع الحقائق التونسية المدروسة. أو ليست الصرامة مع السماحة روح إبلا؟
تجنّبت إبلا دائما التدخّل في الشؤون السياسية والدينية للبلد. إنّ اختيارها للثقافة وحيادها الإيجابي هما من أسرار ديمومتها التي جعلت منها ملتقى للمثقّفين من كلّ حدب وصوب.

جون فونتين (1936-2021): كاتب ومستشرق فرنسي. متحصّل على الدكتوراه في الآداب العربية من جامعة ايكس-اون-بروفنس بفرنسا سنة 1977. أدار مجلّة إبلا من سنة 1977 إلى 1999. له عدّة مؤلّفات حول الثقافة التونسية منها بالخصوص ثلاث كتب حول تاريخ الأدب التونسي عبر النصوص (باللغة الفرنسية).

هذا المقال هو ترجمة عن الفرنسية للمداخلة الّتي ألقاها الراحل جون فونتين في ملتقى "أبناء إبراهيم عليه السلام على أرض تونس" في 8 فيفري 2014 والصادرة في كتاب يحمل نفس العنوان عن جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور

الراحل جون فونتين في ملتقى "أبناء إبراهيم عليه السلام على أرض تونس" الذي نظمته جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور سنة 2014. المصدر: تونس الفتاة

"

خصّصت المجلّة حيّزا أكبر لمشاكل تونس و"شخصيّتها القاعدية" والخصائص المميّزة للتونسيين وتشكّل فكرة الوطن في تونس ونشأة الوعي الوطني

"

النسويّة في السّياق العربي

ظروف النّشأة، السّيرورة التاريخيّة وأبرز التحوّلات

بقلم: **زينب التوجاني**

أستاذة الحضارة العربية بجامعة منّوبة

> *لسنا نعني بـ"النّسوية العربية" شكلا واحدا من أشكال التعبير النّسوي ولا نعني أيضا حركة متّسقة ومتكاملة بين النّساء العربيات*

تزداد معالم النسويّة في السياق العربي اليوم وضوحا وإن بدت مشتّتة فهي فكرة جوهرها تغيير واقع النّساء وتحقيق المزيد من المساواة لا فقط بين الرجال والنساء، بل إن جوهر النسوية في السياق العربي منذ انبثقت تحقيق المساواة الاجتماعيّة وتحقيق المواطنة بما المرأة رمز لجميع الفئات التي تعاني من التمييز. فخصوصية النسوية العربية كامنة في أنّها عامل من عوامل تجديد البنية الاجتماعية بهدمها وإعادة بنائها، من بنية القبليّة وقيمها إلى بنية المواطنة عبر مسار النهضة المتواصل رغم العقبات.

وهذه النّسويّة التي تمثّل عنصرا بارزا من عناصر الفعل الاجتماعي والفكري ولها أسماء لامعة وأخرى تعمل في صمت، ولها منظّمات وجمعيّات وجدت نفسها في قلب الصراع، وإنّ لهذه الحركات والجمعيّات والاتّحادات والأصوات النسائيّة المفردة تاريخا، ولهذا التّاريخ ماض قد ترك بصماته وآخر أخفاها النّسيان وتتطلّب الحفر فيها والنّبش عنها، ولكن فرضيّة هذا المقال، أن النسوية في العالم العربي تأثّرت بالنسويّة الغربيّة لكنّها ليست تقليدا أعمى لها وتطوّرت بإسهامات الرّجال من المصلحين ولكنّها لم تبدأ على أياديهم وحدهم وإنّما كانت النّساء المنسيّات أمّهات هذه النسوية التي تجدّ في المطالبة بحقوق النّساء وكرامتهن بحسب ما تسمح به ظروف التّاريخ وأحواله وصروفه. وهي تعبير عن رغبة تغيير واقع النّساء ولكنّها أيضا تأمل تغيير واقع التمييز نحو بنية اجتماعيّة أكثر عدالة. ولسنا نعني بـ"النّسوية العربية" شكلا واحدا من أشكال التعبير النّسوي ولا نعني أيضا حركة متّسقة ومتكاملة بين النّساء العربيات، ولا نقرّ بوجود وعي نسوي بكامل البلدان العربية يجعل النسويّة حركة مدركة للصّعوبات وللرّهانات وللتّحديات بل إن "النسويّة العربية" لا تزال من منظور تاريخي في بداية التشكّل والتطور. وقد اجتمعت في 2009 باحثات ونسويّات ضمن مؤتمر عقد في الجامعة الأمريكية في بيروت وتمحور حول النسويّة العربيّة لمحاولة تقييمها نظريا وعمليا وتمّ فيه الإقرار بوجود حركة نسويّة عربيّة أصيلة، وإن من دون وجود شكل نسويّ عربي وحيد شامل. ومن جهة أخرى نجد باحثات ينكرن أن يكون التيار النسوي العربي كتلة منسجمة ومتآلفة ويعتبرن أنه لا يمكن أن نعتبر النسوية العربية حركة بالمفهوم العلمي للكلمة ويفسّر هؤلاء الباحثات ذلك بعوائق من خارج التيّار النسوي وداخله كذكوريّة المجتمع وارتهان النّاشطين الى تمويلات تحدّ من حريّتهم وبرجوازيتهم وإلى عدم توسيع شبكات تحالفهم وعلاقاتهم.

ويجدر التنبيه إلى الفرق بين نسويّة ونسائيّة فنحن في هذا المقال نستخدم نسويّة بشكل عام لنعبّر عن مراحل تطوّر الفكر النسويّ من مرحلة ما قبل النسويّة إلى المرحلة النسويّة بمعنى أن النسويّة في منظورنا تشترط الوعي بها وبالخلفيّات النظريّة التي تحرّك النّساء ليتنظمن ضمن استراتيجية لنيل حقوقهنّ فيما أن نضالات النّساء اليوميّة التي تتمّ بشكل واع أو غير واع لا تعبّر بالضرورة عن حدوث هذا الوعي بالخلفيات وبالحاجة الى التنظم في حركة جامعة موحّدة للجهود النسائيّة من أجل تأثير مباشر على حقوقهنّ وحياتهنّ. لقد ذكرت حسن عبود في أحد مقالاتها أن مصطلح "نسوية" بدأ استعماله في التّسعينات فيما كانت الكاتبات يستعملن قبل ذلك مصطلح "نسائيات" وقد فسّرت الهام المرزوقي ارتباط النّسوية العربية بظروف التحديث المنقوص في البلدان العربية وبنى لم تستوعب بعد المعايير العقلانية والتطور المطلوبين. فتخلّف التنمية أدى حسب رأيها إلى غياب إمكانيّة تعريف لهذه النسويّة العربيّة التي وجدت أمامها منذ نشأتها عقبات مضعّفة اقتصادية وعالمية ترتبط بالهيمنة وبنى الاستغلال. ونحن نرى اليوم قوى نسائية يتحكّم فيها السّياق التّاريخي فتساعدها التقنيات الحديثة على التعبير بشكل متزايد عن توقها لتحقيق وجودها لكنّ ذلك التّحديث المنقوص لا يزال يمثّل عائقا حقيقيّا أمامها.

والنسويّة في المنظور العلمي ترتكز أساسا على مفهوم فاعليّة النّساء وحركتهنّ فهي الوعي بأن الظلم والتفرقة الواقعين على النّساء ليسا مجرّد صدفة تاريخيّة ولا مشكلة ثقافيّة أو جغرافيّة أو قضية مرتبطة بالفقر والجهل بل أيضا توجد عوامل معّقدة مباشرة وغير مباشرة تقع على النّساء وحدهن ويعاني منها مجتمع بكامله. وهي حركة اجتماعيّة وسياسيّة تشير إلى عدم صحّة الفصل التامّ بين المجالين العامّ والخاصّ فالحياة الخاصّة هي أيضا أمر سياسيّ ذلك أن قرارات النّساء بالزواج والطلاق والانجاب تؤثّر بسياسات الدولة. ويتمثل الوعي النّسوي في الشّعور والإدراك بمشكلة التمييز الواقع على النّساء نتيجة لكونهنّ نساء بالأساس والالتزام بقضايا النّساء من هذا المنطلق. وهي حسب آمال قرامي "حركة سياسية ذات أهداف اجتماعية تحولت إلى حركة اجتماعية تهدف إلى استقلالية المرأة وإبراز أهمية دورها في الحياة والدفاع عن حقوقها"

إن النسوية إذن في الأصل حركة سياسية غايتها إحداث تغييرات اجتماعية لفائدة النساء بتمكينهن من حقوقهن ولكنها في السياق العربي ارتبطت بظروف تاريخية وسياق النهضة والتحديث ومسارهما المتعثر وأمست بمثابة فاعل من فواعل التغيير المأمول والنهضة الحقيقية المرتقبة. ولذلك يمكن عموما تقسيم هذه التيارات حسب مراحل التطور إلى ما قبل حدوث لحظة الوعي النسوي أي تلك اللحظة التي أمسكت فيها المرأة العربية قلمها تنظيرا ونقدا وإبداعا لتساهم بنفسها في التعبير عن احتجاجها وتوقها لتحطيم بنى التمييز وقبل ذلك مرت النسوية بمراحل مهمة مهدت السبيل لانبثاق الوعي بضرورة إعادة النظر في التاريخ العربي والإسلامي من منظور نسوي لتمكين النساء من حقوقهن. ومع أن جهود النساء في الأقطار العربية كانت متفاوتة حسب طبيعة البيئة والظروف إلا أننا سنحاول إجمالا تلخيص تلك الجهود في 3 مراحل بارزة امتدت من أواخر القرن 19 إلى يومنا هذا:

المرحلة الأولى: إرهاصات الوعي النسوي

المرحلة الثانية: لحظة التسعينات: انبثاق الوعي النسوي

المرحلة الثالثة: ما بعد الثورة التونسيّة والثورات العربيّة

المرحلة الأولى: إرهاصات الوعي النّسوي العربي:

مرحلة المطالبة بالتّعليم

تميّزت المرحلة الأولى لتكوّن الوعي النّسوي العربي بانبثاقها ضمن سياق فكر النّهضة والإصلاح وخطابهما الذي يربط بين الوحدة الوطنية وحرية المرأة ويركّز على المطالب الأساسية الأولى أي الحق في التعلّم والعمل أساسا. وطرحت في هذه المرحلة قضايا الحجاب والسّفور واحتد النقاش بين دعاة المعاصرة والتّجديد والأصالة والجمود، ويمكننا أن ننطلق في التأريخ لهذه المرحلة بالإشارة إلى دور الأميرة نازلي(توفيت 1914) التي كانت تتقن 4 لغات هي العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية ومكّنها ذلك من سعة الاطلاع على آداب الشعوب الأخرى، وكان لوالدها مكتبة ضخمة ونشأت نشأة مكّنتها من أن تكون رائدة بإنشاء أوّل صالون ارتاده كثيرون

تأثّروا بما كان يجري فيها من نقاشات من بينهم قاسم أمين ومحمد عبده والافغاني الذين ساهمت نازلي في تحسيسهم بالقضية النسائية في بوادرها الأولى. فكتب قاسم أمين (توفي 1908) كتابيه الشهيرين **تحرير المرأة والمرأة الجديدة** ودعا فيهما إلى تعليم المرأة وحقها في العمل وخاض في قضية الحجاب والسفور وبرزت في هذه المرحلة كتابات أولى مهمة لرائدين كالطهطاوي 1801-1873 وكتابه **المرشد الأمين للبنات والبنين** دعا فيه إلى التّعليم المختلط وتعليم البنات وحاجة الأمّة إلى ذلك. فكما تقرّ باحثات نسويّات يجدر بنا الانتباه إلى السرديّات الأبويّة التي تجعل النّساء مجرّد منفعلات بمبادرات المصلحين الأوائل في حين أنّه بإمكاننا العثور على أدلة تؤكد أن نساء عديدات من طبقة مرفهة تلقين تعليما في طفولتهن في بيوتهن واستطعن أن يؤثرن بشكل مباشر في تطور الفكر الإصلاحي واهتمامه بأحوال النساء، كما حدث مع تأثر قاسم أمين بالحوارات التي كانت تدور بينه وبين الاميرة نازلي في صالونها.

وقد سبقته إلى طرح قضايا النساء أقلام نسائية كعائشة تيمور (ت1902) واللبنانية زينب فواز (ت1914) فوضعت الأولى كتابا في القوامة وشروطها ومعناها، وكتبت الثانية تدعو لحرية المرأة وتدافع عن حقوقها في مجموعة من الرسائل تحمل عنوان "الرسائل الزينبية" أو كما تأثر الطاهر الحداد بالحوارات التي كانت تدور بينه وبين النساء اللواتي يأتين يشتكين أوضاعهن الاجتماعية الصعبة في دكان أحد المشايخ الذين كان يجلس حذوهم وكان قادرا حينئذ على مراقبة معاناتهن عن كثب. وقد وصف صدى تلك المحاورات والمعاناة في قسم من كتابه امرأتنا في الشريعة والمجتمع.

إنه ينبغي أن ننتبه ونحن نلخّص أهمّ سمات هذه المرحلة الأولى إلى التاريخ الذي لم يكتب وبقي منسيا عن نساء كن يعملن في صمت وفي عتمة ولم يحتفظ لنا التاريخ بأسمائهن ولكنهن أثرن بشجاعتهن وبعملهن الدائم في تطوير الأسئلة حول المرأة العربية واوضاعها البالية وكنّ أحيانا في مواجهة تلك البنى التقليدية بكل جرأة. لقد لعبت التجربة الشخصية دورا مهما في تطوير وعي النساء بمنزلتهن ومحاولتهن تحسين وضعهن فخصّصت هدى الشّعراوي- التي عاشت التمييز في طفولتها وحرمت من التعلم في المدارس وزوّجت باكرا حياتها للتحسيس بحقوق النساء - في 1908 قاعة في الجامعة لتعليم النساء وتأسس الاتحاد النسائي المصري في 1923 ونزعت هدى الشعراوي الحجاب، وأسست في 1966 جمعية تحمل اسمها. وفي لبنان نظرت نظيرة زين الدين في 1928 للسفور والحجاب ولخلعه وكانت لحظة مهمة فارقة في تاريخ الوعي النسائي بقضاياهن. وتميزت هذه الفترة عموما ببوادر أولى للحراك النسائي ابرزت قدرتهن على مواجهة قدرهن في أحلك الظروف.

وتؤرخ إلهام المرزوقي للحركة النسائية التونسية بالعودة إلى مرحلة ما قبل الثلاثينات مشيرة إلى أهميّة الاحتجاج

الأميرة نازلي فاضل. المصدر: ويكيبيديا

الرمزي الذي قامت به حبيبة المنشاري ومنوبيّة الورتاني سنتي 1924 و1929 والذي أعلن انطلاق الوعي النسائي بقضية الحق في المساواة وفي المشاركة في الحياة العامّة. لقد ساهمت المرأة التونسية في تلك الفترة التاريخيّة في الحراك ضد الاستعمار وفي الخروج إلى الفضاء العمومي في حركة رمزية احتجاجية أعلنت معركة السفور ودلت على قدرة النساء على مواجهة تحديات المجتمع وأعرافه وظروفه الاقتصادية والاجتماعية. وليس الامر حكرا على المصريات والتونسيات فقط بل تشابهت في هذه الفترة التاريخية حركة النساء العربيات ومساهمتهن في مقاومة الاستعمار في بلدانهن وحتى في بلد جامد التقاليد كالسعودية استطاعت المرأة في هذه المرحلة أن تشرع بالتعبير عن نفسها بالكتابة، ونشر لها بعض المذكرات والمقالات. فقد ظهرت منذ1911 حركة أدبية ساهمت فيها الكاتبة ملك حفني ناصف 1886-1918 ولبيبة هاشم محررة فتاة الشرق، وأثرت أيما تأثير في النساء العربيات في كامل البلدان العربية. وازداد الاهتمام بما ينتجه النساء وما يبرعن فيه فكتب حسن حسني عبد الوهاب في تونس في 1917 كتابه "شهيرات تونسيات".

وخلاصة هذه المرحلة تتمثل في بروز تحرك نسائي في المجال العام احتجاجا ضد الاستعمار أو ضد التمييز والحرمان من الحق في التعليم ويساند هذا التحرك النسائي فكر النهضة والإصلاح المنبثق عن السياق التاريخي برمته وسيزداد هذا الوعي قدرة على التعبير عن نفسه والبروز بالتقدم في الزمن وبتطور الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد ظهرت بوادر الوعي النسوي في شتى الأقطار العربية حتى الأشد تحفظا فيما يخصّ حقوق النّساء، وهي وإن كانت مواقف فردية أحيانا لغياب مشروعية الحديث عن تنظيم نسوي أو تيار نسوي فإنه لا يمكن التقليل من شأنها، وقد انتشرت هذه الموجة على كامل أقطار البلاد العربية، في شكل صحف وكتب ومقالات وأسّست مجلاّت للدّفاع عن النّساء وحبرت كتب عديدة وصدحت النساء بمواقفهن مثل تلك المواقف النسوية لسعوديات يقاومن البنى الجامدة ويحاولن بكلّ شجاعة إيصال أصواتهنّ. ومن ذلك مقالة للرد على فكرة أن النساء ناقصات عقل ودين في مجلة قريش سنة 1959. غير ذلك من الأمثلة التي تركها لنا تاريخ الفعل النسائي الجبار المقاوم لكل البنى الجامدة. ومن ذلك اقتحام السّعوديات لمقاعد العلم والدراسة رغم معارضة السلط الدينية المتشددة. وستثمر كل هذه المقاومة النسائية وحصول أعداد غفيرة من نساء العالم العربي على التربية والتعليم وتمسّك بعضهن بالتدرج في التعليم إلى مراحل الجامعة والدكتورا سيثمر كل هذا الواقع الجديد ثماره في التسعينات.

ما بعد الحرب العالمية الثانية: المساهمة في حركات التحرّر

انخرطت الأصوات العربية النسائية الصاعدة والقوى الفاعلة في حركات التحرّر الوطني، وساهمن بشكل متزايد في الحراك النقابي والسياسي وفي معارك الاستقلال. وارتبطت رهانات الدولة الوطنيّة في هذه المرحلة بتحرير النساء

> *يساند هذا التحرك النسائي فكر النهضة والإصلاح المنبثق عن السياق التاريخي برمته وسيزداد هذا الوعي قدرة على التعبير عن نفسه والبروز بالتقدم في الزمن*

وتعليمهن وتشريكهنّ في بناء الأوطان. وازدادت الأصوات النسائية وضوحا وتزامن إصدار مجلات نسائيّة عديدة مع تأسيس الجمعيّات في جل البلاد العربية.

فقد تميزت مرحلة الثلاثينات وما بعدها بنشأة أولى المؤسّسات الرسمية النسائية التي انطلقت على إثر صدور بعض الكتب الرائدة والحراك المهمّ فتأسس في 1936 الاتحاد النسائي الإسلامي التونسي و1945 اتحاد المرأة الأردني الذي اهتم بالتصدي للتمييز أساسا. وفي سنة 1953 تأسّس نادي البحرين للسيدات لمساعدة الفقراء وتعليم النساء المهارات الأساسية وفي 1965 تأسس الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية ومثل قاعدة من قواعد منظمة التحرير الفلسطينية وفي 1966 تأسست جمعية هدى الشعراوي ودعت للمقاومة والدفاع عن القضايا العربية، وفي 1975 تأسس الاتحاد النسائي العام بالإمارات للمطالبة بحقوق النّساء في التعليم أساسا.

لقد تميزت هذه المرحلة بالتزام النساء بقضايا تحرير الأوطان وببدايات المطالبة بالحقوق السياسية فخرجت النساء في مظاهرات تنديدا بالاستعمار كتلك المظاهرة التي خرجت فيها نساء تونسيات سنة 1939 في باب سعدون وقبض فيها على 12 امرأة. وساهمت النّساء الريفيات مساهمة كبرى في معاضدة الفلاقة بالبلاد التونسية بين 52 و54 وتجمّع النساء سنة 1955 لمطالبة الحكومة بحقوقهن المدنية والمساواة مع الرجال. وتوجت هذه المساعي في 1956 بإصدار مجلة الأحوال الشخصية بتونس. غير أن ثمار هذه البذور النسوية المزروعة في المجتمعات العربية لم تزهر في كل البلدان بنفس الوقت ولا بنفس الدرجة، ففي السعودية مثلا لم يتم الاعتراف أصلا بقضية حقوق النساء إلا سنة 2003 على حد قول الباحثة السعودية هتون أجواد الفاسي، وقد تأخر ذلك الاعتراف وتأخرت معه مكاسب النساء فيما استطاعت النسوة التونسيّات أن يقطعن أشواطا نحو المزيد من الحقوق والحريات ونحو المزيد من التحرر من الأغلال. فلذلك لا يمكن الحديث عن حركة منسجمة والحال أن لكل بلد عربي ظروفه وأن النساء العربيات اللواتي بدأن تقريبا من نفس النقطة لم يصلن إلى تحقيق نفس المنجزات بعد، لأسباب تتعلق بالسياسة والاقتصاد والحروب والقوى التي تشد إلى الوراء. وسيزداد هذا الواقع النسوي تمزّقا وتفاوتا مع السّنوات.

المرحلة الثانية: لحظة التسعينات: انبثاق الوعي النسوي والمطالبة بالحقوق السياسية

انبثق في التسعينات الوعي النسوي بالمفهوم الاصطلاحي مستقلاً عن السّلطة القائمة في جلّ البلدان العربية. فقد صعدت في هذه الفترة الدولة القوميّة وحاولت احتواء الأصوات النسائية وإخضاعها لسلطتها فنشأت نسويّة يُصطلح عليها بنسويّة الدولة، وتصاعدت في هذه الفترة تيارات الإسلام السياسي وعلت الصحوة الإسلامية فتزايدت فاعليّة التيارات النسويّة فقد كانت بمثابة رد فعل على هذا التنامي المتزايد للأسلمة الذي يهدّد ويستهدف النّساء وحقوقهنّ أساسا.

وهكذا فقد بدأت النسويّات ينفصلن عن السّلطة القائمة ليحدثن أولى المنظمات النسائيّة المستقلّة، فانفصلت لجنة سيّدات الوفد في مصر عن حزب الوفد بسبب تجاهل الوفد لآراء اللّجنة النسائيّة وأسّست الهام المرزوقي سنة 1978 نادي قضايا النساء ومجلّة نساء سنة 1985 وصعد تيار نسوي يساري يعارض السّلطة القائمة. وتأسّست في 1989 جمعية النساء الديمقراطيات التونسيّة متصدّية لسياسات الدولة ومستقلة عنها. وظهرت هذه الجمعيّات المناهضة للصّحوة الإسلاميّة وللاستبداد في الجزائر والمغرب كذلك، وفي 1985 تأسّست الجمعيّة الديمقراطية لنساء المغرب وكانت تابعة لحزب التقدم والاشتراكية وتأسّست في الجزائر جمعيات نسائيّة مستقلة بعد إصدار قانون الجمعيّات سنة 1989، وركّزت هذه الجمعيّات على المطالبة بالمساواة بين الرجال والنساء، من ذلك الجمعيّة من أجل المساواة بين الرّجال والنساء أمام القانون، وجمعيّة النّساء من اجل المساواة والمواطنة. وامتدت هذه الحركة المستقلة في المغرب العربي خاصّة وازداد وعيها بحضور فواعلها المؤتمرات العالمية التي لعبت دورا في التأكيد على التلازم الضروري بين الديمقراطية والتنمية وحقوق الإنسان والسلام، وتمسكت هذه الجمعيات النسائية المستقلة في تونس والمغرب والجزائر بالدفاع عن هذا التلازم بين قضايا النساء وقضايا الديمقراطية فوجدت نفسها في مواجهة الفكر السلفي من جهة والأنظمة السياسية الحاكمة التي ضيقت عليها وعطلت نجاعتها.

وفي السعودية سنة 1990 تعالت الأصوات النسائية للمطالبة بالحق في قيادة السيارة. لكنهن واجهن قمعا شديدا وضغطا تحركه قوى دينية متشددة.

لقد شمل الحراك النسائي المستقل اوساطا متعلمة استفادت من التعليم الذي تلقته في سنوات الاستقلال الأولى وبدأ يعطي ثماره، وفي تونس نشطت مجموعات من النساء المتعلمات والعاملات أبرزهن لجنة المرأة العاملة صلب الاتحاد العام التونسي للشغل، ولجنة المرأة في صلب المنظمة التونسية للدفاع عن حقوق النساء الديمقراطيات التي تكونت من جامعيات طالبن بمكاسب حقوقية وكان السعي الأساسي هو الاستقلال عن السّلطة.

لقد تميّزت هذه الفترة بتعدّد التيارات النسوية وتنوعها، فنجد نسوية تطلق على نفسها نسوية إسلامية ظهرت تقريبا بعد الثورة الإيرانية وساهمت فيها نساء تصاعدت معهن آمال الصحوة الإسلاميّة تمسكّن بما يسمينه ثوابت دينية كالحجاب وغيره مما يطلق عليه بالحدود البيتية، فأثّرت هذه الفاعلية في تيارات الصّحوة التي باتت تشجّع النساء المنضويات تحتها على المبادرة والأخذ بزمام الفاعليّة النسويّة الإسلاميّة، ثم ستبرز نسوية إسلامية لها بعد ثان غير إخواني منطلقها مراجعة التأويل الذكوري للنّصوص الدينية ومحاولة جعل الإسلام متلائما مع العصر- ومع الاجتهادات المعاصرة. وتميّزت في هذه النسوية أصوات مجدّدة تملك معرفة دينية وتأويلية جديدة كأمينة ودود وأسماء المرابط في المغرب وزهية جويرو في تونس. ونجد النسويّة العلمانية التي تشعّبت بدورها أيديولوجيا إلى ليبرالية ويسارية واستمرت إلى جانب تلك التيّارات المتصارعة نسوية الدولة المتمثلة في الاتحادات القومية التي ترعاها الدولة. وتمسكت الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات بهذه العلمنة وبالمطالبة بالفصل بين الدين والدولة معتبرة أن تحقيق مطالب النساء في الكرامة والعدل والمساواة لا يتحقق إلا بتحقيق العلمنة الضرورية.

وبذلك يمكننا أن نلاحظ أن النسوية في العالم العربي بدأت مرتكزة على تعاليم الإسلام وقيمه نبعت من مفهوم الاجتهاد الفقهي نفسه، ومن مرجعية فقهية ودينية ثم أمست ذات طابع قومي مع صعود الدولة القومية ثم مع صعود الصحوة الإسلامية افترقت إلى نسوية إسلامية ونسوية علمانية مضادّة. وتولدت نسوية في خضم الصراع التاريخي من مخاض هذا الخطاب النهضوي حول المرأة، وهذا يؤكّد على أصالة هذه التيارات الفكرية النابعة من عمق حاجة النساء للتغيير ومن حصول الوعي لديهن بحقوقهن المسلوبة ومن منظومة الفقه ذاتها التي اتاحت لهن بابا للتاويل والتجديد. فالنسوية بذلك ليست غريبة عن تربتها وعن مشاغل النّساء وحاجاتهن.

لقد تأثرت النسوية العربية بالتيارات الإيديولوجية التي انتشرت في العالم العربي أيما تأثير، فأمست الليبرالية والماركسية ومنتجاتهما الفكرية تغذي هذه الاتجاهات وتعمق مفاهيمها ولكن ساهم ذلك في تشتيت الجهود النسائية وإضعاف فاعلية هؤلاء وخسارتهن الوقت ومعارك عديدة خضنها، أهمها معركة المشاركة السياسية في الوقت الذي أمست كلّ النّساء العربيّات قادرات على المطالبة بالحقّ في التّعليم، وقد كان ذلك الحقّ البسيط في بداية القرن العشرين محلّ شكّ وتفاوض.

إن لحظة انبثاق هذا الوعي النّسوي مثّلت نقطة فارقة بين النسوية المنبثقة من الفكر الإصلاحي ومن مفهوم الاجتهاد الفقهي نفسه ونسوية لها أسس علمانية متأثرة بالتيارات الغربية دون أن تكون منبتة عن جذورها وعن حاجيات النساء. فوجدت النسوية العلمانية خاصة في بلاد المغرب العربي نفسها في قلب الصراع السياسي من أجل الديمقراطية والتنمية وحقوق

> إن البلدان العربية تفرض على مواطنيها تحديات هائلة لمواجهة امتحان التاريخ المعاصر، وقد استعدت النساء بشكل تلقائي طبيعي للدفاع عن الحياة والحقوق وللتنظم في البلدان الأقل فوضى لمواجهة الثقافة الذكورية والرأسمالية المتوحشة والفساد والتمييز

الإنسان.

المرحلة الثالثة: ما بعد الثورة التونسيّة والثورات العربيّة: المشاركة في الثورات وتحقيق الذات

اختلفت السّياقات العربية اختلافا شديدا بين ثورات نجحت نسبيا وثورات أدّت إلى سقوط الأنظمة والدّخول في الفوضى والمجهول، وأمست التّحديات التي تواجهها الأصوات النسائيّة وتنظيماتها أو حتّى مبادرات النّساء الفرديّة متزايدة بشكل هائل، فقد فرض سياق العالم الجديد قواعد العولمة القاسية وفرضت التكنولوجيات الحديثة واقعها الخاصّ الحامل لشروط تطوير الحركات النسائيّة وعرقلتها معا. فازدادت جهود الفاعلات والفاعلين وازدادت الضّغوط لانفتاح الفضاء الرقمي ولتعدّد المعرقلات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والتكنولوجيّة.

لقد تعالت أصوات الحركات النسائيّة في تونس تطالب بالحفاظ على المكتسبات التي تهدّدها الفترة الانتقالية وتصاعد الحركات الإسلامية ووصولها للحكم، واقترحت مؤسسات الدولة نفسها مشاريع تتعلق بإلغاء التمييز وإقرار المساواة التامة، وأثار هذا المشروع الرئاسي المقترح في عيد المرأة التونسية سنة 2017 جدلا كبيرا بين مؤيدين ورافضين. فنزلت القوى النسائية والنسويّة والمدنيّة والمتعاطفة للشارع تطالب بالمساواة التامّة وتتشبّث بحقوقها وتضغط لأجل المواطنة التامة.

وفي المغرب علت أصوات النّساء يطالبن بالمساواة في المواريث وكذلك في الجزائر بعد الحراك السياسي سنة 2018 تزايدت الفرصة للمطالبة بالمساواة التامة. ويمكننا ملاحظة ارتفاع الصوت النسائي بكامل البلدان العربية فأمست المرأة فاعلا واضحا بارزا تقود المظاهرات المناهضة للنظام كما حدث في السودان وفي مصر وفي الجزائر وتطالب بحقوقها السياسية والاقتصادية.

لكن أوضاع النّساء في بلدان كالعراق وسوريا تشهد المزيد من الصّعوبات والتقهقر والتحديات التي تعيدهن إلى نقطة كن في بلدانهن قد تجاوزنها، ففي أثناء سيطرة تنظيم داعش على العراق وجزء من الأراضي السّورية شهدت حقوق النّساء تراجعا كليّا، وبرزت ظواهر كدنا نعتقد أنّه يستحيل عودتها للوجود، كالسّبي والاغتصاب الجنسي الجماعي المشروع الذي مورس على اليزيديات والكرديّات وغيرهن من النّساء اللواتي لم يخضعن. وتقهقرت حقوق النساء فعاد تعدّد الزوجات وموروث عليهن مظاهر عنف رمزي وجسدي عنيف بلا هوادة. وبذلك فإن الوقائع تثبت أن حقوق النساء في تهديد دائم وأن النسوية العربية لا يزال أمامها عقبات مهولة لتتمكن من تحقيق تقدم حقيقي ملموس يغير في حياة النساء العربيات.

أما في بلدان كتونس والمغرب والجزائر ولبنان ومصر فقد تزايدت في فترة بعد الثورات العربية الحركات الاحتجاجية وردات الفعل من أجل المزيد من الحقوق والقوانين والتشريعات وتزايد آمال الحركة النسوية في جل البلدان العربية لما تيسر للنساء من فرص للحراك السياسي والحقوقي ومن حريات خاصة في بلدان كتونس التي ازدادت فيها الجمعيات والمنظمات النسوية وغيرها وساهمت الثورات في نقل النساء إلى قلب الحدث السياسي والمشهد الإعلامي والعام. فأثبتت النّساء قدراتهن وكفاءتهن في القيادة والتّعبير والاحتجاج والمقاومة وأكّدن إرادتهنّ التغيير الاجتماعي والسياسي. وتميّزت النسويّة السعوديّة بحراك مهم في هذا السّياق المتغيّر يساعدهن في ذلك ضغوط كثيفة لإقرار إصلاحات اجتماعية جذريّة في المملكة وانفتاح افتراضي غير ممكن التحكّم فيه ساعد النّساء على الاحتجاج والمقارنة بغرهن والتثقف والمطالبة بحقوقهن، إضافة إلى تزايد الحراك الثقافي من نسوة أسهمن بأقلامهن في التعبير عن همومهن وهموم النساء الخليجيات اللواتي يخضعن لسلطة مجتمع محافظ فيه تراتبية تظلم النساء. وتمكنت السعوديات من الظفر ببعض المطالب كقيادة السيارة وطرح مسألة الولاية والوصاية والحق في العمل والتمكين السياسي والحق في الانتخاب. ويمكن أن نعتبر هذه النتائج التي حققتها النسويّة السعودية على بساطتها مهولة وعملاقة في مستوى رمزي حين نقارنها بما تعرض له في التسعينات من غضب وعقوبات، ويمكننا أيضا أن نعتبر هذه النسوية نموذجا لتأثير ثورة التكنولوجيا ووسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي. غير أن الطريق لا يزال صعبا عسيرا ولا تزال التحديات أمام كلّ النسوة العربيات مهولة.

الخاتمة: مستقبل الحركات النسويّة العربيّة والرهانات الصعبة.

رغم كل الجهود المبذولة من النساء العربيات ومن فواعل الحراك النسوي العربي المعاصر لا يمكن الحديث حقا عن نسوية عربية موحدة وبالمفهوم العلمي الدقيق كما الشأن في الحركات النسوية الغربية التي خضعت لمراجعات وأرخ لها بموجات أولى وثانية وثالثة إلى الحديث عما بعد النسوية. فهذه التيارات النسوية العربية لا تمثل كتلا منسجمة ومتآلفة وهي تعمل بشكل فردي وتتأسس على جمعيات مجهدة وتخضع للمتغيرات السياسية لهشاشتها وعدم صلابة أسسها. ولعلنا "بحاجة في الوطن العربي إلى تعلم الكثير من زميلاتنا في شبه القارة الهندية وفي سائر أرجاء آسيا وبلدان افريقيا وكذلك من النساء السود والمهاجرات إلى أوروبا والولايات المتحدة"

لكن مع ذلك يمكن الجزم بوجود آمال نسويّة عريضة يحرّكها انتماء هؤلاء النّساء لثقافة عربية إسلامية لم تحسم بعد علاقتها بالتاريخ وبالعروبة والهوية ولم تجدّد بعد علاقات الافراد فيها ببعضهم البعض ولم تحسم بعد علاقتها بماضيها وبمستقبلها، فما يوحّد هؤلاء النساء العربيات هو العراقيل اللواتي يجدنها أمامهنّ بسبب بنية ثقافيّة تميّز بين الافراد وبسبب دونيّة مرتبتهن وتردي التنمية الاقتصادية في بلدانهن وخضوعهن للفقر وللتهميش والعنف بسبب هذا التردي السّياسي والاقتصادي المبرّر تبريرا دينيا والذي تغطي عورته القوانين.

ومع ذلك تمكنت هؤلاء النّسوة ومجتمعهن وقواه الحيّة من تحقيق تقدّم ولو نسبي فحازت السّعوديات على الحق في سياقة السيارة ودفعت التونسيات المجتمع للنقاش العميق حول الحق في المساواة في المواريث ولا تزال النساء في الأراضي المحتلة والأنظمة المتعثرة يقاومن اضافا متعددة من التحديات كالاستعمار والاستيطان والقهر في فلسطين وتهاوي الامن والنظام في ليبيا وسوريا والحكم العسكري في السودان والحرب والمجاعة في اليمن.

إن البلدان العربية تفرض على مواطنيها تحديات هائلة لمواجهة امتحان التاريخ المعاصر، وقد استعدت النساء بشكل تلقائي طبيعي للدفاع عن الحياة والحقوق وللتنظم في البلدان الأقل فوضى لمواجهة الثقافة الذكورية والرأسمالية المتوحشة والفساد والتمييز. وأمست الحركة التونسية نموذجا لتقدمه في الحصول على حقوق لا تزال أملا في بلدان عربية عديدة كمنع تعدد الزوجات وتنظيم الطلاق والحصول على الحق في الانتخاب والمشاركة السياسية وقوانين التمكين والتناصف. وهكذا فقد أمست مسؤولية التونسيات عسيرة للقيام بمراجعات والنقد الذاتي والتمحيص لمعرفة الهنات وضبط خطة للعمل المستقبلي. فواقع النسوية العربية معقد ومختلف ولا وجود لهياكل جامعة تشجعه وتنظمه ولكن مستقبله واعد بلا شك، من أجل النضال للمزيد من الحقوق السياسية والحد من العنف السياسي وكشفه والمشاركة في إحلال السلام وتحقيق التنمية العادلة والخروج من الفوات التاريخي وليس مطلب النساء العربيات سوى الحصول على مواطنتهن التامة وهذه المواطنة هي اتجاه المستقبل الذي يحدد مستقبل الأوطان العربية برمتها فإذا تحققت هذه المواطنة تحققت الأوطان وإذا تعسّرت هذه المواطنة تعسرت الأوطان فمستقبل النسوية العربية هو في حقيقة الامر متطابق تطابقا تامّا مع مستقبل الأوطان العربية. إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

قدّمت هذه المداخلة في ملتقى "النسوية في العالم العربي" الذي نظّمته جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور يوم 22 سبتمبر 2018

المراجع

أبو بكر أميمة، النسوية الإسلامية بين إشكاليّات الداخل والخارج، مجلة طيبة، العدد 7، القاهرة، 2006.

أبو زيد نصر حامد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1999

بن سلامة رجاء، النساء في الخطاب العربي المعاصر، منشورات تجمع الباحثات، بيروت، ط1، 2004.

تاريخ الحركات النسائية في العالم العربي، وضع المرأة العربية2005، الأمم المتحدة، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا.

جدعان فهمي، خارج السرب، بحث في النسوية الإسلامية الرافضة وإغراءات الحرية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط2، بيروت، 2012.

جماعي، النسوية العربية رؤية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية- تجمع الباحثات اللبنانيات، بيروت، 2012

جويرو زهية، الوأد الجديد مقالات في الفتوى وفقه النساء، مسكيلياني للنشر، ط1، 2014.

الحداد الطاهر، امراتنا في الشريعة والمجتمع، تونس، الدار التونسية للكتاب، ط5، 1989.

الحداد محمد، حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، دار الطليعة، بيروت.

رجائي أحمد، 1000 شخصية نسائية مصرية، سلسلة الموسوعة

صابر خليفة صفاء، المشاركة المدنيّة للشّباب والبيئة العربية: ستّ سنوات على تحليل الخطاب وتقييم الفترة الماضية، نموذج مساهمة المرأة في الحياة السياسية العربية، في: مشاركة النساء في السلام، الأمن والعمليات الانتقالية في اعالم العربي، مساهمة باحثات وباحثين، مؤتمر فريدريش إيبرت /مساواة، بيروت، 16-17 نوفمبر 2017

عبود حسن، الخطابات المتباينة للنسويّة والإسلام، باحثات، الكتاب 9، بيروت

المرزوقي إلهام، الحركة النسائية في تونس في القرن العشرين، ترجمة آمال قرامي، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010.

قرامي آمال: حوار معها: لا توجد حركة نسوية في العالم العربي!في https://aawsat.com/home/article/150616، عوين 6/07/2019.

دليل للدراسات النسوية النسائية الشابة، نظرة للدراسات النسوية، https://nazra.org/sites/nazra/files/attachments/-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D9%88%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%8A%D9%94%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%A7%D8%A8%D8%A9.pdf

إصلاح التعليم في تونس بين الزيتونة والصادقية

بقلم: **أحمد الطويلي**

(2022-1942)

أستاذ تعليم عال في اللغة والآداب والحضارة العربية بتونس ودكتور دولة ومبرز في اللغة والآداب العربية. له أكثر من 130 كتابا في البحث والتحقيق والدراسة والمقالة والقصة . كانت له مساهمات بارزة في عدّة لقاءات نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة، كما صدر له مقالان في كتابين جماعيين من منشورات الجمعية ومؤسسة كونراد أديناور وهما "محنة أحمد ابن حنبل" (ضمن: محنة المثقّفين في الحضارة العربية الإسلامية، تونس، 2016) وإصلاح التعليم في تونس بين الزيتونة والصادقية" (ضمن: حركة الإصلاح في تونس (1837-1934)، تونس، 2017)

كان جامع الزيتونة معقلا من معاقل الفكر والعلم ضد التخلف العلمي والتدهور الثقافي والتحجر الفكري في العهد العثماني، وضد الانبتات الحضاري، وضياع الهوية العربية الإسلامية في عهد الحماية الفرنسية على تونس، وقد تخرج من منهج التعليم بجامع الزيتونة، منذ القرن الثاني للهجرة أعلام كبار أمثال ابن عرفة وابن خلدون في العهد الحفصي وأمثال إسماعيل التميمي وعمر المحجوب وأحمد بن أبي الضياف ومحمد السنوسي ومحمد بيرم الخامس ومحمد النخلي وسالم بوحاجب والخضر حسين ومحمد الطاهر ابن عاشور وابنه الفاضل في العهد الحسيني، وقد كان لهؤلاء دور كبير في إصلاح التعليم الزيتوني، وكانوا من أركان النهضة الفكرية والحركة الإصلاحية بالبلاد التونسية. فقد نقل علماء جامع الزيتونة العلوم الإسلامية للأجيال من تفسير وحديث وفقه والعلوم اللسانية من نحو وبلاغة وأدب عبر الزمان، وتخرج علماء تولوا القضاء والإفتاء والتدريس والخطابة والعدالة وغيرها من الخطط.

لكن التعليم الزيتوني بقي مختلا غير منتظم، ولم يكن له قانون يضبطه، ويحدد برامجه، وأوقات التدريس فيه، ومراتب مدرسيه، ورواتبهم وتلامذتهم، ومراقبة التدريس، وينظم الإدارة، ودام ذلك إلى القرن التاسع عشر، فلم يبدأ تنظيمه إلا في عهد أحمد باي المشير الأول (تولى الحكم سنة 1837- ت 1855)، الذي أصدر منشورا سنة 1842 يحدد فيه خطط الأساتذة (15 مالكية و15 حنفية) والراتب اليومي للأستاذ مقابل إلقاء درسين في أي فن وفي أي وقت من النهار، ويضبط العطل، وهي يوما الخميس والجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين، ومراقبة المدرسين بهيئة متكونة من شيخي الإسلام الحنفي والمالكي، والقاضيين الحنفي والمالكي، يأتون بالتداول كل يوم لمراقبة الحضور، وضبط بيت المال الذي خصص بأكمله لجامع الزيتونة، خاصة تنظيم انتداب الأساتذة في حال شغور خطة مدرس من الثلاثين مدرسا وذلك بالانتخاب أو بالامتحان.

وزوّد أحمد باي الجامع بمكتبة مهمة بفضل الإهداءات المختلفة لكن لم يتناول منشوره الذي سمي بالمعلقة، لتعليقه بالجامع، برامج التدريس مواد وكتبا وتنظيما للدروس، ويجب انتظار 18 سنة كي يقع الاهتمام بإصلاح التعليم بجامع الزيتونة إصلاحا جذريا.

فقد أصدر محمد الصادق باي (تولى الحكم 1859- ت1882) منشورا يوم 27 سبتمبر 1870 بمبادرة من خير الدين يقضي بتكليف أربعة من مشايخ الزيتونة لتقديم تقارير عن حالة التعليم بالجامع وهم الشيخ محمد العزيز بوعتور والجنرال حسين العضد الأيمن لخير الدين والمؤرخ أحمد بن أبي الضياف ومحمد البكوش المستشار بالوزارة الكبرى، ولنا فقط التقريران اللذان كتبهما محمد العزيز بوعتور والجنرال حسين عن المدرسين والتدريس بالجامع والمكتبة والموظفين.

لقد أراد خير الدين الاطلاع على حالة التعليم الزيتوني من جميع جوانبه وواقعه ليتخذ القرار المفيد لإصلاحه، فبينما يقرر الشيخ بوعتور أن كل شيء على ما يرام وأن " المفيدين والمستفيدين على ما يسرّ من الإقبال على العلم الشريف والاعتناء به، وأن كل الطلبة قليلون بالنسبة إلى الدروس والمدرسين."وأن الدروس "هي جملة صالحة" وتقع في أوقاتها، ومتعاقبة أثناء النهار، و"أن كل مدرس موف بما اشترط عليه من الدروس بمقتضى الحُبُس وأن كثيرا منهم (أي المدرسين) متطوع بالزيادة على ذلك."

فإن الجنرال حسين قدم تقريرا واقعيا سلبيا عن أحوال التعليم بجامع الزيتونة، فقد لاحظ قلة الطلبة، وسأل بعض الشيوخ عن ذلك فأجيب بأن كل ذلك معتاد عند دخول الصيف لذهاب الطلبة إلى بلدانهم وإلى سواحل البحر، ولاحظ غياب نظارة الجامع، وعندما سأل عنهم أجيب بأن رئيسهم شيخ الإسلام مريض وأن القضاة المكلفين بالمراقبة معفون من الدروس لانشغالهم بفصل النوازل. وانتقد غياب درس التفسير في البرنامج قائلا: "كان من الواجب على أحدكم أن يقرئ التفسير إذ لا يحسن أن يخلو الجامع الأعظم من درس في التفسير، فلاحظ له أحدهم أنهم يدرسون كتابا في البلاغة يعين على التفسير بعد ختمه، فأجابهم بأن الصواب التوجه مباشرة إلى التفسير وتعلم العلوم ذاتها لا عبر الشروح. وعاب عليهم تدريس النحو في كثير من الكتب (11كتابا) وأن مادته صارت متغلبة على الدروس، إذ يدرس النحو مائة درس في اليوم، فيزيد درسه على نصف الدروس وقال:"فما نحن والحالة هذه إلا كمن يأكل الملح بالطعام لا الطعام بالملح."

وانتقد الجنرال حسين في تقريره كثرة التآليف التي تدرس في غالب الفنون والعلوم وعددها في التقرير 46 كتابا منها 13 في الفقه و11 في النحو و4 في البلاغة و4 في التوحيد وثلاثة في التوحيد وثلاثة في الحديث وإثنان في التجويد وكذلك في المنطق والفرائض. ودعا الجنرال حسين أن تتكفل طائفة من العلماء بتأليف رسالة في كيفية التعليم وأن يكون لكل مدرس عشرون تلميذا.

واستشهد بقول ابن خلدون "إنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك." وقوله أيضا:"إن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعلم."

لكن المهم في هذا التقرير أن الجنرال حسين العضد الأيمن لخير الدين، والمفكر الكبير المتفتح على الحضارة الغربية لاحظ صعوبة الإصلاح في الجامع في يوم أو شهر أو سنة وختم التقرير بقوله: "الواجب الآن الشروع في مبادئ التحسن والسير عليها."

وكشف هذا التقرير تدهور التعليم بجامع الزيتونة والسبب الأصلي "أن طبائع من

الآباء توارثها الأبناء" ولا يمكن الإصلاح إلا تدريجيا، مما دفع خير الدين والجنرال حسين وزير المعارف وثلة من المصلحين من مشايخ الزيتونة إلى التفكير في إنشاء مؤسسة عصرية للتعليم هي المدرسة الصادقية التي صدر قانونها في 13 جانفي 1875 والغاية من تأسيسها تعليم العلوم الرياضية من جبر ومقابلة وهندسة، وتدريس اللغات (التركية والفرنسية والإيطالية)، وتعليم القرآن والعلوم الشرعية والخط وحفظ المتون. والجديد في قانون الصادقية إقراء النصوص مباشرة والتخلي عن الشروح والحواشي، واعتماد سماع التلامذة في أسئلتهم لتنشيطهم وترغيبهم في اقتناء العلوم، وينصّ القانون أيضا على التربية الأخلاقية وإجلال الأساتذة والاستماع إليهم.

وقد ساهم مشايخ الزيتونة مساهمة فعلية في إنشاء المدرسة الصادقية تأسيسا وتدريسا وضبطا للمواد التدريسية، وكان لهم دور كبير في الإصلاح في القرن التاسع عشر مع خير الدين إذ كانوا ضمن العصبة الإصلاحية التي يترأسها، نذكر منهم محمود قابادو ومحمد بيرم الخامس وأحمد بن أبي الضياف ومحمد بن عثمان السنوسي مع خريجي معهد باردو للعلوم الحربية منهم الجنرالات حسين ورستم ورشيد، كان لهم جميعا الصدى الواسع والأثر البعيد في النهضة بتونس. لقد ناصر علماء الزيتونة خير الدين في تطبيق برنامجه الإصلاحي، وعين منهم علماء بإدارات حكومته منهم بيرم الخامس الذي تولى إدارة جمعية الأوقاف، ومحمد السنوسي الذي تولى إدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد التونسي، وساهم علماء الزيتونة في بلورة الحياة الفكرية والسياسية بالبلاد التونسية ودعوا شعرا ونثرا الناس إلى أن يثقوا في رجال الإصلاح وناضلوا ضد الجمود الفكري، وضد المشايخ الذين عرفوا بالتحفظ ضد كل مشروع حديث، وقام عدد من المشايخ بإدخال أبنائهم للمدرسة الصادقية. ومنهم من ساهم في تحرير كتاب خير الدين "أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك" مثل سالم بوحاجب.

وقد تلقى خير الدين رسائل من عدد من علماء الزيتونة تمجده وتنوه بالصادقية خاصة المفتيين أحمد بن الخوجة المفتي الحنفي والشاذلي بن صالح المفتي المالكي الذي لاحظ أن تلامذة الصادقية يحفظون القرآن والمتون من نحو وتجويد وفقه وتوحيد، وأصول الفقه والتجويد وكذلك يتميزون في الجغرافيا والحساب واللغتين التركية والفرنسية.

ومن المشايخ الذين بعثوا رسائل تنويه وتمجيد إلى محمد العربي زروق مدير المدرسة الشيخ محمد البشير بن الخوجة الذي أعجب بتكوين خريجي الصادقية في المسائل الفقهية وفي مختلف العلوم مع صغر السن، ونوه الشيخ مصطفى رضوان في خطبته، وقد حضر الامتحان، بترتيل تلامذة الصادقية للقرآن الكريم بفن وتجويد، وحفظهم للمتون العلمية وإجادتهم لعلم النحو بما فيه من المسائل العويصة والمشاكل الدقيقة وبعلمهم للغتين التركية والفرنسية، وقد امتحنهم خير الدين بنفسه في اللغات، ومهارتهم في الرياضيات وعلم الجغرافيا، ومدح ما عمله خير الدين في إصداره قانون الجامع وتكوينه لمكتبة الصادقية بالجامع الأعظم، وتنظيمه للمطالعة بالمكتبة العبدلية، وزيادته لمرتبات المدرسين وتنظيمه للإدارة وما يخص المتعلمين ومواد التعليم. وأصدر محمد الصادق باي في نفس السنة من تأسيس الصادقية قانونا بمبادرة من خير الدين، سمي بالقانون الصادقي، يتعلق بإصلاح التعليم الزيتوني. صدر في 18 ذي القعدة 1292/26ديسمبر 1975، ويضم 67 فصلا في خمسة أبواب:

الباب الأول في الفنون التي تقرأ والكتب التي تدرّس في تلك الفنون وفي مراتبها وما يتعلق بها.

الباب الثاني في أحوال المشايخ المدرسين وكيفية التدريس ونصائح بيداغوجية.

الباب الثالث في أحوال التلامذة وما يلزمهم من الآداب والحفظ للمتون والتوقير للمشايخ والسؤال بلطف الخ

الباب الرابع في أعمال المشايخ النظار.

الباب الخامس في أحوال الكتب ووكلائها وإعارتها.

وقد حرر هذا القانون لجنة برئاسة خير الدين وعضوية المشايخ محمد العزيز بوعتور وزير القلم وأحمد بن الخوجة المفتي الحنفي ومحمد الطاهر النيفر القاضي المالكي والشيخ عمر ابن الشيخ وأحمد الورتاني ومصطفى رضوان ومحمد بيرم الخامس ومحمد العربي زروق. وكان خير الدين قال للجنة: "أنتم نخبة الجامع فالمراد أن تضبطوا لنا الأساليب التي تحققتم منها النفع في مدة قراءتكم وإقرائكم."

وقد أحدث خير الدين مكتبة بجامع الزيتونة وسماها بالصادقية وأحيا المكتبة العبدلية ونظم فيها المطالعة وكانت كتبها عرضة للتلف والضياع، وأقبل الناس على المكتبتين إقبالا كبيرا، وزوّد خير الدين المكتبة بكتبه وكتب آخرين أهدوها لمكتبة الجامع.

لكن أمر التعليم بقي على حاله في التدهور، وأدرك أنصار خير الدين من خريجي الصادقية أن الجامع لا يقوم بما

المرحوم أحمد الطويلي وهو يلقي مداخلته في ملتقى "حركة الإصلاح في تونس (1837-1934)سنة 2016
المصدر: تونس الفتاة

"

ساهم مشايخ الزيتونة مساهمة فعلية في إنشاء المدرسة الصادقية تأسيسا وتدريسا وضبطا للمواد التدريسية، وكان لهم دور كبير في الإصلاح في القرن التاسع عشر مع خير الدين

"

يحتاجه الطلبة من العلوم العصرية، إذ كان مقتصرا على تعليم العلوم الشرعية واللغوية، فتضافرت جهود النخبتين من الصادقية والزيتونة لترميم الخلل وسد النقص وتكميل التعليم الزيتوني مما يحتاجه الطالب من العلوم العصرية واللغات الأوربية فأنشؤوا المدرسة الخلدونية في 22 ديسمبر 1896 لهذه الغاية.

أنشئت بمبادرة من البشير صفر، وتولى إدارتها بالانتخاب محمد القروي ثم تلاه البشير صفر ثم محمد الأصرم. وكانت الدروس تلقى فيها مساء من الساعة الخامسة والنصف إلى الثامنة ليلا لئلا تزاحم ساعات التدريس فيها دروس التعليم بالزيتونة، وافتتح الخلدونية الشيخ سالم بوحاجب بخطبة حث فيها الطلبة الزيتونيين على الإقبال على العلوم العصرية بالخلدونية، وبين فوائد العلوم الصحيحة على المجتمع والدين، وقال:" إن العلوم المشار إليها.. نجدها ترجع لحفظ الأمور التي اتفقت الشرائع على وجوب المحافظة عليها، أعني الدين والبدن والعرض والمال." وذكر أن الدين يحفظ بالمعارف الدنيوية إذ أنه لا يستقيم إلا بالدنيا، وحث التلامذة على الإقبال على مكتبتها التي تحتوي على كتب ليست في مكتبة الجامع مشيرا إلى أن بعضهم "تشمئز نفوسهم من مخالفة المعتاد أو يتحاشون أن تتعلم الأولاد علما لا تعرفه الآباء والأجداد."

ونذكر من مشاهير أساتذة الخلدونية الذين ألقوا فيها محاضرات المشايخ محمد النخلي ومحمد الطاهر ابن عاشور ومحمد الخضر حسين وأبو القاسم الشابي، وقد خصص الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور صفحات للخلدونية بين فيها دورها في إصلاح التعليم الزيتوني ملاحظا أن أكثر التلامذة أعرضوا عنها ولم يقبلوا عليها إلا حين تقرر تغيير برنامج شهادة التطويع وإدخال أسئلة الجغرافيا والتاريخ والحساب والمساحة فيه، فقد اكتشف تلامذة الزيتونة إذاك الفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي ودرسوا اللغة الفرنسية وتحصلوا على شهادات الخلدونية التي مكنتهم من العمل في الوزارات ولنا إحصائيات تقر بنجاح 113 طالبا تحصلوا على شهادات في سنة 1906، وفي هذه السنة زاول التعلم بها 156 طالبا، وطالع بمكتبتها النفيسة 4896، وقد انتدب مديرها أشهر علماء الزيتونة للتدريس فيها.

ولنا إحصائيات أيضا بالنسبة إلى من كان يحضر الدروس بالخلدونية في الثلاثينيات من القرن العشرين: ففي الرياضيات 123، والهندسة 66، والطبيعيات 44 والكيمياء 44، والنبات 29، والتاريخ 107، والجغرافيا 112، والإنشاء 150، والفرنسية 170، ومسك الدفاتر 35.

وإثر تكوين الخلدونية تشكلت لجنة باقتراح من المقيم العام الفرنسي ريني ميللي René Millet لتنقيح ترتيب التعليم بجامع الزيتونة بتنظيم الدروس في المستويات الثلاثة، الابتدائي والثانوي والعالي.وتغيير أسلوب التدريس من غير "سرد للكتب وإعرابها وذكر الخلافات فيها وما أشبه ذلك." مما يشوش على الطلبة فلا يمكنهم من الفهم أو تحصيل العلم، لكن مشايخ اللجنة كتبوا تقريرا رفضوا به المقترحات الإصلاحية ذاكرين أن الأمة الإسلامية محتاجة إلى معرفة كل العلوم الشرعية"التي هي متسعة جدا لا يفي بالاستيلاء عليها العمر الطويل، وإن العلوم الشرعية "لا تقبل المزاحمة من الفنون التي لا مساس لها بالعلوم الشرعية ورسائلها: وقالوا إن العلوم العصرية المقترحة "تعوق عن الحصول عن الدرجة الكافية في التبحر منها والتضلع من فنونها" وانتقد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رفض اللجنة للمقترحات المقدمة وقال "تلقاها شيوخ جامع الزيتونة بسوء الظن وتخيلوا أنها شرك نصب ليبطل به تعليم العلوم الإسلامية... فصمموا على معارضته بتاتا بكل قواهم وتلك عادة عرفوا بها، يغلقون باب المباحثة ويقاومون كل طلب للإصلاح ولو كان صوابا."

وقال الوزير الأكبر إذاك حين تلقى تقريرهم مجيبا المقيم العام: "أرجعوا تعليم جامع الزيتونة إلى نظارة المشايخ الأربعة وخلوا بينهم وبين الجامع." فصار جامع الزيتونة وإدارته تابعة مباشرة للوزير الأكبر، وحذفت مسؤولية وزارة المعارف وإدارة العلوم التي كان يرأسها لوي ماشوال.

ويفصل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور القول في نظام الدروس في جامع الزيتونة فيما يخص التلامذة ومواد الامتحانات والعطل وحضور المشايخ وغيابهم، ومواضيع الدروس ومدرسيها، والكتب التي تدرس، وينتقد بحزن وأسى هذا النظام قائلا: "تبدلت العصور وتقدمت العلوم وطارت الأمم ونحن قعيدو علومنا وكتبنا، كلما أحسسنا بنبأة التقدم والرقي وتغيير الأحوال استمسكنا بقديمنا وصفدنا أبوابنا، فإنك لتنظر الرجل وهو ابن القرن الرابع عشر فتحسه في معارفه وعلمه وتفكيره من أهل القرن التاسع أو العاشر."

كان المدرس يدرّس ما يروق له من الكتب ويقرر ما يختار من المسائل إذ كان التعليم اختياريا لا إلزاميا، والأوقات غير مضبوطة، والبرنامج غير مضبوط.وأطنب الشيخ ابن عاشور في تصوير الواقع الزيتوني إذاك من جميع النواحي، وأرجع أسباب فساد النظام التعليمي إلى "فساد المدرسين وفساد التآليف."وتهاون النظّار بأمر التعليم "لا يستمعون إلى الدروس ولا يشعرون بأحوال التلامذة."ويصوّر الشيخ حال بعض المدرسين فيقول باستياء:" من العار الكبير أن نرى كثيرا ممن ينتصب لتعليم النشأة تعجبك أجسامهم وتبهجك بزتهم وتعظّم صورهم، ولكن ما بينك وبين أن ترمقهم بضدّ ذلك وتعاشرهم أو تجادلهم فترى تلك الهياكل العظيمة فارغة من الفضيلة ومكارم الأخلاق والمروءة."

وتأسست جمعية قدماء الصادقية في 23 ديسمبر 1905 بمبادرة من علي باش حانبة غايتها دعم الحياة العلمية والثقافية بتونس، ومؤازرة معهد الخلدونية في دروسها لتلامذة الزيتونة، ومن برامج الجمعية إلقاء دروس عمومية في المساء في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية.وتنظيم دروس في النحو واللغة العربية والأدب وإنشاء مكتبة مفتوحة للجميع، وقامت بمحاضرات أسبوعية يعقبها نقاش. وكان لجمعية قدماء الصادقية تأثير كبير في الوسط الزيتوني، ونظمت محاضرات حتى داخل المدن حول الرياضة والموسيقى والخمر والمنتوجات الفلاحية والصناعية والأمراض الجنسية.

وتأسست عقب هذه الجمعية جمعية تلامذة جامع الزيتونة برئاسة الشيخ محمد رضوان، من أعضائها محمد الخضر حسين ومحمد الطاهر ابن عاشور، وكان اجتماع التأسيس بقاعة الخلدونية، ثم استقال منها الأساتذة وكوّنوا جمعية أخرى باسم "الجمعية الزيتونية" تضم أشهر الأساتذة الزيتونيين منهم محمد الطاهر ابن عاشور رئيسا ومحمد رضوان ومحمد النخلي ومحمد الخضر حسين والطاهر النيفر

> كان المدرس يدرّس ما يروق له من الكتب ويقرر ما يختار من المسائل إذ كان التعليم اختياريا لا إلزاميا، والأوقات غير مضبوطة، والبرنامج غير مضبوط.

أعضاء مع آخرين. وقد ذيّل محمد الطاهر ابن عاشور كتابه "أليس الصبح بقريب؟" بالحملة الصحفية الشديدة التي شنت على نظام التعليم بجامع الزيتونة.وهجوم كثير من الجرائد في أوائل القرن العشرين على الخلل الكبير الموجود بالجامع، مثل جريدة الحاضرة التي نشرت سلسلة من المقالات انتقدت فيها أحوال التعليم ونظام الامتحان ومثل جريدة إظهار الحق في عدد ديسمبر 1905 والتي انتقدت "كسل المدرسين وتقصيرهم في ترقية مدارك التلامذة وتطويل مدة قراءة الكتب" ومثل "الزهرة" و"الصواب" و"المزعج" التي نشرت مقالات سنة 1906 في انتقاد المدرسين وفساد التعليم وجمود التلامذة، ولنا إحصائيات وردت في كتاب لوي ماشوال "التعليم العمومي بتونس" (بالفرنسية) عن عدد الدروس وجملتها 580 درسا يقوم بها 110 شيخا مدرسا وهي 170 درسا في النحو، 140 في الفقه المالكي، 65 في التجويد، 37 في المنطق، 32 في البلاغة، 32 في الفقه الحنفي، 30 في التوحيد، 15 في الفرائض، 12 في الحديث، 10 في الحساب، (ويلاحظ ماشوال عن هذه المادة أنه ليس هناك تطبيق لها ولا أدوات بيداغوجية) ودرسان في الخط، أما التفسير فدرس واحد وكذلك الأدب والعروض والتاريخ أي تراجم الرجال.

ومما يؤخذ على التعليم الزيتوني بالجامع خلو التدريس من النقد إذ يوصي القانون الصادقي التلامذة بأن لا يناقشوا أثناء الدرس اللهم إلا في آخره إن احتاج الطالب إلى إلقاء أسئلة حول موضوع الدرس، ويعتمد الطلبة عموما على الحفظ من الكتب المدرّسة.

وتلقى الدروس خلال خمسة أيام من يوم السبت إلى يوم الأربعاء وتتعطل يوما الخميس والجمعة، وعدد التلامذة بالزيتونة سنة 1905: 901 تلميذا عمرهم من 16 إلى ثلاثين سنة يتوزعون كما يلي: 194 من العاصمة، 152 من الساحل، 134 من الوطن القبلي، 18 من جزيرة جربة، والبقية من سائر أنحاء البلاد.

وما عدا الطلبة الذين يقطنون في العاصمة فالبقية يسكنون في المدارس وعددها 22 مدرسة تحتوي على 450 غرفة، يسكنها 438 تلميذا، ويذكر ماشوال حالهم التعيس.

وتواصلت محاولات إصلاح التعليم بجامع الزيتونة فأصدر محمد الناصر باي قانون 1330/1912 ، وهو يتكون من خمسة أبواب:

الباب الأول في الفنون التي تقرأ بالجامع الأعظم.

الباب الثاني في أحوال المشايخ والمدرسين: 31 مدرسا من الطبقة الأولى، 13 مدرسا من الطبقة الثانية، و44 من المدرسين المتطوعين بعد إذن من النظار، وكيف يدرّسون.

الباب الثالث في أحوال التلامذة وما يدرّسون ودفاتر دراستهم وترغيبهم في الحفظ والعرض وأسئلتهم للمشايخ بلطف وآداب.

الباب الرابع في أعمال المشايخ النظار.

الباب الخامس في أحوال الكتب ووكلائها وما يتعلق بذلك.

ووقعت محاولات أخرى للإصلاح سنتي 1925 و1933 بإضافة جملة من العلوم الرياضية والعلوم العصرية وجعلها إجبارية، وفي سنة 1951 أحدثت الشعبة العصرية التي دامت إلى أن ألغي التعليم الزيتوني مع توحيد التعليم إثر الاستقلال.

والخلاصة إن التعليم الزيتوني بالجامع كان قاصرا كما يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وعاجزا عن تكوين "قادة للأمة في دينها ودنياها." وإنشاء أرقى أصناف الناس وإن مناهجه عقيمة قد أكل عليها الدهر وشرب، يزاولها مشايخ "كان معنى العلم عندهم هو سعة المحفوظات سواء من علوم الشريعة أو من العلوم العربية فلا يعتبر العالم عالما ما لم يكن كثير الحفظ، وليس العلم عندهم إلا الحفظ."ولا يشتغلون إلا بتتبع المباحثات اللفظية، وتقتصر الكتب المدرسية على الشروح والحواشي والملخصات والمتون المعقدة التي يجب أن تحفظ للتقدم إلى الامتحان، ويلزم الطلاب باستظهارها لكونها زينة العالم".

ويصف الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة في كتابه "شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور" حالة التعليم بجامع الزيتونة في النصف الأول من القرن العشرين ويذكر "الواقع المر والوضع السيء الذي انتهى إليه ذلك المركز العلمي الجليل جامع الزيتونة، والدهشة مما حل بأهله من غفلة ونكوص (..) فلا المناهج محددة، ولا الكتب مقررة، ولا الأوقات معينة، ولا المدرسون مراقبون، ولا المتطوعون قائمون بما التزموا به من حصص الدرس، فالانسياب مستشر، والفوضى مسيطرة على كل شيء، وطلاب العلم بهذا المعهد متفاوتو الأعمار متمايزو المذاهب والاستعدادات. ومما يزيد الوضع سوءا الغفلة عن تنظيم درجات التعليم وإعطاء كل مرتبة من المراتب ما تحتاجه من عناية (..) فقد أهملت التمارين التطبيقية في عامة الدروس حتى بالمرحلة الابتدائية، وترتب على ذلك ضعف الملكات اللسانية، وقلة التحصيل، وخلا التعليم من المواد التربوية، وعري مما يفيد التلامذة إطلاعا على أحوال الأمم وارتباطا بواقع الحياة خارج جدران الجامع، وجمدت المعارف لدى هؤلاء فلم يتجاوزوا ما ورد منها بالكتب من آراء وتقريرات لاستظهارهم إياها بغير نظر ولا تمييز ولا نقد حتى في المرتبة العالية من التعليم أو القريبة منها، وقصرت الهمم عند ذوي الكفاءات عن التأليف، وبقي جميعهم مقيدا في مواد الدراسة بمصنفات وكتب مرت على تأليفها وتصنيفها قرون فتحجرت العقول وتعطلت آلة التدبر والتفكير."

قُدّمت هذه المداخلة خلال ملتقى "حركة الإصلاح في تونس (1837-1934)" التّي نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة ومؤسّسة كونراد أديناور يوم 19 نوفمبر 2016، وقد نُشرت ضمن كتاب جماعي يحمل نفس العنوان.

المراجع

- Charles André Julien, « Colons Français et Jeunes Tunisiens (1882 1912) », *Revue Française d'Histoire d'Outre mer,* Tome 54, 1967, p110.
- Louis Machuel, L'enseignement public en Tunisie, Tunis, 1906. p.218.
- أحمد الطويلي، *التسامح والإصلاح في فكر المصلحين التونسيين*، تونس، 2005.
- أحمد الطويلي، *الصادقية: الوزير خير الدين مؤسسا ومحمد العربي زروق مديرا*، تونس 2006
- أحمد الطويلي، *في الثقافة وإثبات الذات*، تونس، 2013،
- توفيق السبعي، "الخلدونية مؤسسة ومعهدا"، *الملحق الثقافي لجريدة الحرية*، 4 سبتمبر 2008
- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، ص. 587
- محمد الحبيب ابن الخوجة، *شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور*، قطر، 2004، ص209.
- محمد الطاهر ابن عاشور، *أليس الصبح بقريب*،الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1967
- محمد بيرم الخامس، *صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار*، ج1، تحقيق علي بن الطاهر الشنوفي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1999، ص 123.

شظايا... والرائحة ذاتها

بقلم: **انتصار المصراتي**

قاصة، مختصة في شؤون الهجرة واللاجئين

السابعة صباحا

الميترو وصوته الإعتيادي .. في

مكان يصحو على صوته

من هناك .. بين باب الخضراء

ومحطة الباساج

مبان تصلها الشمس أولا قبل كل العاصمة

من هناك .. تبدأ يومها

أيامها تتشابه..

تفتح جفنيها ببطء

تبدأ اليوم متعبة .. ككل يوم

تجلس في الفراش طويلا تحدّق في السقف لبرهة

ثم تتسلل أشعة الشمس..

تجبرها على النهوض

تتجه إلى الشرفة في تبختر

ملابس النوم تصور جسدها المتناسق

تقف على الشرفة

..

و صوت الميترو يكرر ما يفعله كل يوم

مرآة

..

تتزين على مهل

ككل النساء هنا .. كفاتنة..

و الاحمر يزيح أثر السنين

جريئة هي .. حالمة

وتحب إرتداء الألوان

و الأحزان أحيانا

..

صوت الميترو ..

إمراة في الستين أو أكثر بقليل تقطع السكة الحديدية ..

تجرّ العالم وراءها ..

قارورة بلاستيكية تفرّ من كيسها ..

متجهة إلى مسار الميترو

لعلها سئمت هي الأخرى من البلد .. فضّلت الإنتحار .. دهسا

و هناك .. في أعلى المبنى طقوس الزينة لم تنته بعد..

و أخيرا .. تحمل حقيبتها

قنينة عطرها الفاخرة..

ماسكراها

محفظة نقودها

قلم اهداه لها .. حبيب ذهب ولم يعد

و كتاب لأمين معلوف

لم تنس شيئا..

تتعجّل..

قبل أن

..

صوت الميترو ..يصل الباساج

نقطة الإنطلاق البداية والختام أحيانا..

نقطة المواعيد في مدينة تعشق اللقاءات .. حتى في أكثر الأوقات وحدة

الجميع يركض هناك .. إلى ما لا وجهة

أول تباشير الضجيج التي يمكن ان تعترضك صباحا

بشر من كل مكان .. من اول العمر .. ومن آخره ..

و من طفولة تستيقظ باكرا .. باكرا جدّا

لترتاد مدرسة خاصّة في احد أحياء العاصمة

أصوات تتمازج .. تتكرّر .. إلى ان تصير صمتا يتشابه كل يوم

.صوت الميترو يحدد الوجهة ..

في إتجاه برشلونة

يغادر المحطّة ..

سيعود إليها حتما

تنزل ببطء

درج تكرهه .. يكبرها سنّا، ويحمل آثار فرنسية ما رقصت على أنغام إيديت بياف وهي تتجه إلى عملها ..المكان مظلم .. تضع يديها في علبة الرسائل ..

تنتظر شيئا ما .. لم يصل

صوت الميترو .. يتذمر ..

حديقة الباساج تستيقظ من النوم ..

تتثاءب بخضرتها .. وبكمّ العاطلين عن الحلم المقيمين فيها .....و كمّ العابرين .. من العشّاق ... أو ما شابه ذلك

الميترو عالق هناك

يرنّ المنبّه للمرّة الألف

و أخيرا يستيقظ

ينظر إلى الساعة في اشمئزاز

و يقفز من سريره ..السؤال اليومي : أله أمل في أن يصل ؟

أطفال يتجهون إلى المدرسة يعبرون الزقاق الخلفي..

أصواتهم ترنيمة صباحية تجلب الحظّ

يفعل على عجل ما يفعله كلّ يوم..

و يغلق الباب بعنف .. يكاد يسمع

صوت جاره العجوز يتذمّر .. ككل يوم
الأزقة مبللة .. يمشي بحذر.
فكّر في ليلة البارحة، ماذا كان ليفعل لو
أنها تركته ورحلت .. ماذا كان ليفعل لو
تواصل النقاش .. وانسحب لوما وعتابا ..
ثم رحيلا
يبرك الماء على الأرض الرطبة .. تنعكس
صورته عليها .. يتأمّلها ثم تتراءى صورتها
مكان صورته
تنعكس على سطح الماء ... يكاد يصل إليه
عطرها الفاخر أيضا

صوت الميترو ..
بطء أكثر ..
يحاول أن يصل شارع باريس
صباح شتوي مظلم أيضا ..
ينزل رذاذ مطر ..
العاصمة تحت المطر .. غربة وحزن ..
وقصص لا تعرفها سوى أرصفة شارع
باريس ..
وحدها شهدت كل ذلك ..و وحدنا
نشبهها .. تلك المدن العربية التي تعتنق
الحزن .
يقف في محطّة ما .. هو اليوم غادرها ...
ولم يعد يحط الرحال أبدا هناك ..
شارع باريس لا يجوز التوقّف فيه .. لا
إقامة للأحلام هناك .. هو فقط للذكرى ..
ذكرى عابرة

..

تقطع السكة ..كعب عالي .. حقيبة
فاخرة .. وأنغام تتردد في الفضاء ..تقف
عند بائع جرائد .. تقتني جريدتها
اليومية ..فرنكوفونية هي .. وهو يكتب
لها شعرا بالعربيّة
لازال يسرع الخطى .. لعلّه يصل..
قرقعات من أحد المنازل..
رائحة معتادة .. درع..
المدينة العربي .. تفتح جفنيها على
مهل..
تسدل شعرها الحالك..
و تستيقظ
تتراءى له الشمس
أشعة تسرّح شعرها..
لا تفتح الجريدة..
أخبار الوطن الحالك لا تقرأ وقوفا..
من يدري .. كيف يكون أثر
الصدمة .. أو الخيبة إن شئتم
..تواصل طريقها ..الباعة صباحا ..
كراتينهم .. شجاراتهم اليومية
المملة .. تصنع فرحهم بيوم جديد
لا يمكن أن يبدأ إلا كذلك..
مقهاها المعتاد .. يلوح من وراء
صف السيارات..
نفس الوجوه الصباحية .. وأخرى
تقف هنا بحثا عن شيء ما .. وقد
تجد نفسها..
على غير العادة يضعون موسيقى
صباحا..
هو بالاحرى رنين .. ستنزعج
الموسيقى إن سميناه كذلك..
تطلب القهوة ذاتها .. لتقرأ عناوين
الوطن ذاتها بأسلوب مختلف كل
يوم

الميترو بلا صوت .. وصل شارعه ..
يصمت إجلالا ..
شارع الحبيب بورقيبة ..
من هناك .. يمكنك أن ترى كل
تونس .. قد تصل الرؤية الرديف
وبن قردان .. وبعضا مما تركته
فرنسا ..
شارع يحمل كل الحزن ..
يحج له المتعبون من كل مكان ..
يضعون أحزانهم قربانا .. ويواصلون
المسير ..
يمرون دون توقف .. لا إقامة على هامش
التاريخ ..
فالتاريخ أيضا مرة من هناك .. وأسفا لم
يتوقف ..
شارع للصراخ .. في صمت .. للنواح
وللفجيعة ..
يفتح ذراعيه للوحيدين .. وللعشاق .
لعشاق صالات السينما المهجورة ..
وللمقيمين بأروقة " الكتاب .."
يسرع الميترو .. عليه أن يوصلهم ..
و يسرع هو .. بين الأزقة .. يريد أن
يشرب قهوة مرّة .. كهذا الحال..
ينظر إلى ساعته .. ويطرد الفكرة
تتتالى الأزقة .. تعترضه فتاة شقراء ..
تغلق باب عربي أزرق .. بعنف .. تحمل
كاميرا بيدها وتبتسم له .. كمن يقول
صباح الخير بلغته..
يمتعض..
صوت باطني : احتلال
لم تعد تسمع صوت الميترو..
ابتعد..
و هذا الشيء الصاخب صباحا .. يطغى
على المكان..
تترشف قهوتها .. حلوة جدا . لا شيء حلو
سوى القهوة .. حلاوة ساخرة
تقلّب أوجاع الوطن .. بلغة تقمّصته
طويلا..
نزيف من الحبر .. ولا معاني تذكر..
خبّأت الجريدة .. وأخذت تحملق في
العابرين..
هي باتت تخجل من ان تقول للوطن :
تماسك ! .. ففضلت الهروب

الميترو يتمّ المهمة ..
ساحة برشلونة .. توأم الباساج .. من أمّ اخرى ..
الجميع يركض هنا أيضا .. بلا وجهة

وجهته واضحة .. ككل صباح ..
الممرات الخلفية للمدينة العربي ..
بعيدا عن النساء المتشابهات اللاتي تتوارثن اللهجة ذاتها وتتباهين بها ..
و عن الحلي الباهظ الثمن .. يعرض كذاكرة في واجهة لمحلات الأحياء الرّاقية..
الأسواق ؟ لا .. سيعبرها في النص القادم..
من الحفصية يسير..
سوق ملوّنة بألوان الطيف ..
وثقافات الشعوب .. وملابسها
بورصة صباحية..
و فتاتان في ربيع العمر .. تسرعان الخطى نحو أحد الباعة قبل ن تأتي أخرى وتسرق منهما فستانا .. كان سيجعل اليوم اجمل
هناك يغدو " الانتظار حالة عبوديّة " .. وحالة وهن مزمن..
لن تسأل : هل سيأتي ؟
سنطرح السؤال عنها .. ونجيب : ربّما..
أوراق بيضاء .. قلم .. وقهوة..
العاصمة صباحا ..أليست هذه أسبابا كافية للكتابة ؟
بلى .. تجيب..
و تقتل بياض الورقة
له ؟ لا .. هو نص لها ..هي وعدته ذات مساء .. هو أغلى من ان تكتبه ..

يكمل الميترو رحلة أولى .. ينزل مرتاديه الأوائل ..
و يعود ليكرّر حلقته اليومية ..هو لا يملّ ولا يضجر .. هم فقط يملّون منه ..
و يتذمرون
طموحاتهم أكبر .. سيارة ستفي بالغرض .

منبهات سيارات .. يقطع الشارع ..
الحبيب ثامر .. وملك آخر للحبيب بورقيبة ..
معهد هذه المرة
اكتظاظ .. تلاميذ يمارسون روتينهم اليومي .. ويحلمون أحلام يقظة
يبتسم
ضوضاهم تنسيه لحنا كان يردّده ..
كانوا قد أضافوه على قصيدة ..
فصار نشازا..
صوت الميترو مجددا..
يسبقه..
يسرع لعلّه يصل .. ولو متأخرا
تبحث عن النادل..
القهوة اليوم أغلى .. كل شيء في هذا الوطن بات أغلى .. عدا البشر
يصل الباساج منهكا..
بفكّر أحيانا في أن يترك المدينة العربي إلى شقة فرنسية في الجوار ..
تستيقظ كل صباح على صوت الميترو .. ولكنه يدرك جيدا أنه لا يجرأ على ان يترك حبيبته في منتصف الطريق .. ويرحل
تزيد من مكياجها ، تعدّل تسريحتها ، وترش عطرها الفاخر مجدّدا
تغادر المقهى..
تقف على الرصيف..
و تلوّح بيدها..
في الضفة الأخرى من الشارع .. يقف ثم يعبر
..سيارة أجرة .. " محطّة المنصف باي .. من فضلك " .. وتغذي رائحة العطر المكان
يصعد الميترو رقم 2 .. العذاب اليومي الموالي .. نحو العمل

فاز هذا النصّ بالجائزة الأولى لملتقى تونس الفتاة للأدبيات الناشئات "يراع" المنعقد في دورته الأولى سنة 2015

ظلّ بعين واحدة

كاد يغضب لعدم إعدادها العشاء، لكنها اقتلعت قلبها، ولم تبالي باحتراق أصابعها من شدة حرارته، ووضعته في صدر صحنه الفارغ، أمسك السكين والشوكة ثم ألقاهما أرضا عندما سال لعاب شهيته، وخلع نهمه قفازات التحضر المثقوبة، شمر على ذراعيه، وبدأ يزدرد القلب النابض لقمة تلو أخرى غير عابئ بالشوك.

ملأت له حوض الاستحمام، تمدد مسترخيا في دمها، دعك جسده بكفيها، نزع الطحال الذي سد به البالوعة، ليتخلص من الدم المتسخ بأدرانه، ثم لبس جلدها ودلف إلى غرفة النوم، جلس على كرسيه الهزاز المصنوع من عظامها، وفتح التلفاز ليتابع مباراة كرة قدم. سجل الهدف الأول فتقطعت شبكة رحمها، أخطأ التصويب في المرة الثانية، فاقتلع عشب شعرها ورماه ليتلقفه الهواء العجوز الملقى أمام الباب جثة ممزقة الملامح. تعددت محاولاته التي لم يرض الاعتراف بها إلا الفشل، ملأ جمجمة رأسها بتبغه، وواصل متابعة المباراة متلذذا بتدخين غليونه ونفث أفكارها في الهواء.. فجأة، احترق المصباح المعلق في السقف، صعد على كتفيها بعد أن نزع بؤبؤ عينها لتعويض المصباح الذي مات بسكتة ضوئية.

لمح قطتها فأمسكها من ذيلها واغتصبها، علت قهقهته عندما نشبت أظافرها لمقاومته، ثم أمسكها من عنقها ليخرس صوت المنبه الذي عدله على توقيت نشرة الأخبار، لكن القطة واصلت مواءها دعوة منها لكتيبة الفئران، التي تعتبر نفسها محظوظة لأنها تدربت في معسكر قطة محنكة وحظيت بالحماية من هجوم قطط المزابل، وما خسرت حياتها من أجل إرضاء شهوة زائلة تنتهي بها بين فكي مصيدة، ولجمت هوى النفس الأمارة بالبحث في المخازن عن لقمة العيش بكد القواطع وتجاهل رائحة الموت المنتشرة في المكان التي تطالبها بالاستنشاق لتأخذها في غيبوبة أبدية.

اجتمعت الفئران متأهبة لأوامر هذه القطة، التي تدين لها بحياة الرفاهية في جحورها الخاصة بعد التشرد في المجاري. زودتها بأحزمة ناسفة وطلبت منها الأخذ بثأرها، وعدم العودة إلا بعد استرجاع الكرامة المختطفة، وانطلقت الفئران في هجومها الشرس ضد الكتب التي كدسها على الرفوف تحسبا لمثل هذا الانقلاب، لكن الكتب لم تستطع الحراك، فمفاصلها ملتهبة وعلق الغبار في حلق شرايينها، وبعض الأفكار التي تسكنها ماتت دون أن يتفطن إلى جثتها المتعفنة أحد.

قرر مغادرة المنزل، لكن جميع الأبواب موصدة، قدمت له أمعاءها بعد أن جدلتها حبلا ليتمكن من الفرار عبر النافذة، ولم تنس منحه رئتيها ليتخذها خيمة، وكليتيها لتكون إحداهما حشية وأخرى غطاء.

تشبث بالحبل ونزل رويدا رويدا حتى استقر في معدتها، هنأ نفسه بالنجاة، لكن هبت عاصفة فأوقعته ليصارع الأمواج وهو الذي لا يجيد السباحة، أوشك على الغرق في دوامة بلعومها، لولا تشبثه باللوزتين، فتقيأته المعدة على شاطئ الشفتين بعد أن كسر حاجز الأسنان.

نصب خيمته وفرش حشيته وتدثر بالغطاء، رغبة في النوم في الراحة التي أنقذته، بعد أن هدته الراحة التي صفعته. خنق حنجرتها ليسمع موجز الأخبار، وما كاد يغمض جفنيه حتى سمع زئيرا، فأسرع بالاختباء في قوقعة أذنها، ثم تسلل ليرى الزائر فإذا هو غزال مزق الخيمة بمخالبه، ورمى الحشية والغطاء في جوفه، وانطلق في عملية البحث حتى تفطن إلى مكان اختبائه فاتجه ليفترسه، فرمى له الأذن المتبقية عربون حفاوة، لكن الغزال أصر على اقتناص فريسته. تذكر أنه سرق كبدها، فأخرجها من جيبه وقدمها للغزال الذي تراجع وقبل التفاوض، وبعد أن تشمم الكبد حملها بين فكيه وغادر الخيمة الممزقة.

جمع بعض الحطب وألقاه في فوهتي أنفها، وضرب وجنة بوجنة، فاشتعلت النار التي سيتدفأ بها ويشوي فيها بعضا من لحمها ويجفف الباقي وينشره على الزائدة الدودية - الحبل الوحيد المتبقي.

وهو يأكل لحمها، تذكر أن اليوم يوافق ذكرى ميلادها، فأرسل لها تهنئة عبر الفايسبوك وباقة ورد افتراضية ولم يكتف، بل أغدق عليها ملصقات القلوب الحمراء والزرقاء والخضراء، لم ينس إرسال قالب حلوى مطعونا بالشموع التي اشتعل رأسها، ثم تمدد لينام بعد أن خبأ نظاراته وطقم أسنانه وسماعاته وعكازه في بطنها.

فاز هذا النصّ بالجائزة الأولى لملتقى تونس الفتاة للأدبيات الناشئات "يراع" المنعقد في دورته الثالثة سنة 2017

بقلم: **رجاء عمّار**

باحثة في علوم الإعلام والاتصال

شاعرة وقاصّة

rajabalsam@gmail.com

هذيان ليلي

بقلم: **رميساء المرسني**

فنّانة حُرّة، توثّق ارتسامات الرّوح. تلتقط اللحظات بآلة التصوير والشعور بالحرف والمعنى

أشرب حبّة الأسبرين الرابعة... وأمسك رأسي جيّدا حتّى أطبع الحكايا والشخصيات الكثيرة والأحداث المتسارعة...وحتى لا انساك مرّة أخرى...

أنا أريد حزنا أكبر من هذا... أريد وحدة أقسى من جلوسي في غرفة الحمام القذرة، أستمع إلى وقع قطرات الماء الهاربة من الحنفية الصدئة... صوت رتيب وموحش كغيابك الدائم... أنظر إلى قميصك الأزرق المشنوق وراء الباب بعينين زائغتين وأحاول أن أتذكر كل شيء... كل شيء...

نبرة صوتك في الصباح... طريقة امساكك للجريدة... همهمتك وأنت تقرأ الأخبار... غليونك الخشبي القديم... تنقل أصابعك ببطء يستفزّني... تفرك عينيك... تداعب لحيتك المهملة... تمسك فنجان القهوة طويلا... تديره من كل جوانبه... تراقصه بيدك... ثم ترشفه مغمض العينين وتقول ساخرا "أن أناديك حلوتي ليس سببا لتحضير قهوة مرة كل صباح... " تشير إلى رأسك وتضيف "هذا المخ بحاجة إلى السكر والكافيين... عليّ أن أحافظ على نسبة السكر والكافيين... "... تعيد نفس الجملة عشرات المرات... ثم تضيف " وأنت..."

رحيلك المفاجئ والفاجع لا يكفيني... أريد حزنا أكبر من هذا...

أدخن سجائر رخيصة على معدة خاوية... وأرتمي في برود فراشي... وأهمس " عليّ أن أتذكر كل شيء..." وقوفك الطويل أمام الثلاجة... تغلقها بعنف وتعود فاضي اليدين... استلقائك أمام التلفاز لساعات تشاهد نفس الفلم من دون صوت... أنت تعرف الفلم... وتحفظ الأحداث جيدا... وتقرأ تحركات الشفاه... شاهدته أكثر من مرة... وتسأل نفسك في كل مرة " ماذا أفعل؟ مالذي اشاهده؟ "...

أدخن بمعدل عشرين سيجارة في الساعة وأسعل أسعل إلى أن أختنق... أتنفس بصعوبة... تقلّ أنفاسي... أستكين... ثم أصرخ باسمك... وأبكي... وأخجل مني... أعاتبني... أضربني... ثم أبكي بلا سبب... كرحيلك بلا سبب...

ويخيل إلي أنك وهم... وحبك وهم... وأنني اخترعتك لأشفي من وحدتي... واخترعت قميصك الأزرق... وعطرك الفرنسي- الباهظ... ذو الرائحة الغامضة والخفيفة... اخترعت يديك من أجل شاماتي الأربعين... واخترعت هذا البيانو من أجل يديك... البيانو...

أنيسي هذه الليلة... أنا لا أجيد العزف... أضغط بسبابتي على مفتاح أسود... وأعيد نفس الحركة مرارا وتكرارا وبانتظام... إلى أن ينسجم الصوت مع وقع قطرات الحنفية... ونبض قلبي الصدئ...

لم أنم ليومين... أطرافي باردة وأنا أهذي...

أحتاج كوبا من الحساء الساخن... رائحة الحساء... ضحكات وقهقهات في المطبخ... صوت السكاكين... وعزف البيانو... أنا أهذي... أمسك رأسي... أتذكّر أكثر...

أقف أمام المرآة... أنا أرى قلبي... جسدي شفاف جدا... وقلبي قذر ومهترئ... كمنفضة سجائر... كخرقة تنظيف المداخن... كجورب متسوّل ملّته الثنايا... مليء بالتقيحات والدماميل الكبيرة... ولكنه ينبض... ببطئ ولكن ينبض...

أدير وجهي وتأتيني رغبة جامحة في أن أتقيّء... وأن أبصقك على الجدران وأهرب...

أدخل الحمام... أرضية قذرة... صوت الحنفية في ارتفاع... أرتدي قميصك الأزرق... أغلق أزراره واحدة تلو أخرى... رائحة عطرك الفرنسي الباهظ... ذو الرائحة الغامضة... والخفيفة... أنا قريبة منك... أحس أنفاسك على وجهي... تنفّس... تنفّس... عليّ أن أتذكّر أكثر... فرحيلك لا يكفيني... أريد حزنا أكبر... يليق بأديبة ناشئة مثلي... رحيلك لا يكفيني... أريد حزنا أكبر لأكتب...

...

أريد...

أريد أن أكتب أي شيء...

عن نكدي أيام الآحاد وأواخر العطل...

عن سروالي الجينز المفضل الذي لا أستطيع ارتداءه بسبب وزني الزائد...

عن علبة الكبريت التي لاتزال تخيفني...

عن خوفي من كل هذه السرعة الهاربة بنا إلى المجهول...

عن أرضية الحمام المتسخة وصوت الحنفية المقلق وصياح الجارة كل صباح...

عن مرضي القوي وجسدي الضعيف المناضل رغم كل شيء...

عن "الياسمينة" التي لم تزهر منذ غرستها أمام شرفتي...

عن سكوتي الطويل وهدوئي الخانق وضجيج صدري المليء بالأسرار والحكايا...

عن مكتبي الفوضوي ولوحاتي الكئيبة الخالية من الحياة...

عن شاماتي الأربعين... وتلك المفضلة لديك على عنقي...

عن المقاهي المزدحمة وثرثرة الجالسين وغوغائهم المثيرة للصداع...

وعن هذا الكم الهائل من المهمومين الوحيدين في الأعياد والمناسبات...

عن سيجارتي التي لا تنطفئ قبل أن تشعل أخرى في محاولة يائسة لتجسيد انتقال الدفئ العائلي...

عن هذه "الحبة" التي لا تظهر إلا في الأيام المهمة...

وعن هذياني كل ليلة ونومي المتقطع وحبات الدواء الملونة والكثيرة.. دون جدوى...

عن تدخيني على معدة خاوية كل صباح وعن قهوتي الخالية من السكر...

عن هوسي بالأشياء القديمة وحنيني لرائحة المنازل والحارات العتيقة...

عن حبي لأفلام "شارلي شابلن" الصامتة. ..

وعن استماعي للموسيقى التصويرية الحزينة والمخيفة كلما أردت الكتابة...

عن حلمي بنشر السلام في العالم...

وعن فتوحاتي وحروبي الوهمية والغاز المسيل للدموع السائلة مسبقا...

عن قصيدتي التي لا تكتمل إلا بك...

وعن غيابك الذي يبعثرني وتعبي من الجلوس في قاعات الانتظار كل مساء...

وعن اشتياقي لعناق طويل منك يلم شتاتي...

أريد أن أكتب أي شيء...

أريد أن أكتب عنك...

وأريد أن ألقي بنفسي من أعلى حلمي...

لأختبر صلابة جسدي، وليونة الأرض...

ولكني أخاف السقوط في البحر، وأنا المخلصة للظمأ..

جسدي الجاف يعلقني على جدار من الجليد الساخن، ويعلق الساهرون أحلامهم على كتفي... ويدق القدر مساميره... وينصهر المسمار بالسكين والجرح...

وأنا... يتيمة الحب والأشعار والفرح...

أنادي في المدن أمسي، وبالسيف المنزوع من ظهري، والدم المنسكب من جرحي...

أكتب اسمك على الكنائس والمساجد...

وأتساءل كيف أبدو في الصورة الموضوعة على رف المدفأة...

وهل كنت تتدفأ بالنار أم بالوهج الساطع من خدّي...

وبقي حلمي صغيرا لا يكبر... وبقي قلبي كحبة سكر...

وبقيت أنت... كسهم حي في عنقي... ينبض ألما، بألم قلبي يعصف أكثر...

....

صوتك يصهل في رأسي كل ليلة، وشفاهي تهذي شعرا غير موزون...

والوحدة تتكور وتتكوم برداء أسود، وتجلس كل مساء تراقبني... ألاقيها في كل أركان بيتي...

كلما زاد حنيني إليك... اقتربت أكثر لتنال مني...

أسهر محاولة نزع الشظايا من كلوم الذاكرة...

أحترق وجعا، ودمي جامد لا ينسكب...

لو أنني أسقط من أعلى حلمي...

لو أنني ازرع فيك كياسمينة... ألف قلبك

الوحيد بأغصاني... وأخيط جلدي لأدثرك
....
ليست لدي رغبة في الذهاب إلى الكلية هذا اليوم، ومصادفة كل أولئك الناس الغاضبين من كل شيء ..
كل صباح...
في كل "الميتروات" التي تجوب العاصمة...
تلك الرغبة، التي تأتيكم جميعا، البقاء في الفراش لبرهة بعد الاستيقاظ مباشرة، تأتيني لساعات طوال...
ساعات من التحديق في السقف...
ساعات من اللاشيء...
في غرفة مليئة بالأحذية والقمصان الملقاة على الأرض...
وخزانة فارغة، تملأها العتمة...
الساعة تشير إلى الثانية بعد الزوال، أشرب قهوة سادة في كوب كتب عليه " Good morning beautiful" يخيل إلي أنها اشارة لرفع معنوياتي وإيهام نفسي بأنني شخص عادي، له من المسؤوليات الكافية ما يخوله للقيام صباحا..
لكنه في الحقيقة الكوب النظيف الوحيد...
لا أحب جلي الأواني، أفضل الأواني البلاستيكية، فهي تساعدني للحفاظ على رائحتك على جلدي لأكثر وقت ممكن...
أمرر أصابعي على جدول أوقاتي الملصق على باب الثلاجة، أتفقد الحصص، عدد الساعات، وحتى أسماء الأساتذة... علي أن أواكب كل شيء، فأنا أريد أن أبدو شخصا عاديا...
أشاهد فلما قديما لTom Hanks لا أعرف اسمه...
تلفازي يفتح ويغلق على نفس القناة منذ أسابيع، لقد أضعت ال"télécommande" تحت كوم من بقايا البيتزا والسجائر الجزائرية الرخيصة...
أشاهد فلما صامتا وأكتفي برصد تحركات الوجوه والملامح...
أريد أن أخترع شخصا يشاهد معي التلفاز... يجلس بقربي على الكنبة، أقرأ له بعض الصفحات من رواية الحب والحرب لليو تولستوي، نرقص على معزوفة تشايكوفسكي " بحيرة البجع " أو رائعة موسيقية من روائع باخ...
و نشرب نخب كل المتروكين، والمنازل الصامتة وكل الأشياء الهامة التي لن تحدث... ثم أقلب الكنبة بكل قوتي وأقتل طيفك المختبئ في الركن وأصرخ " أنا الحقيقية هنا ! كلكم خيال ! "...
....
أنا شخص ضعيف جدا، لا أستطيع استيعاب كل هذه الوحدة دفعة واحدة...
ولا أريد استقلال الميترو الخفيف في حين أن صدري مثقل بكل هذا الروتين...
أريد استيعاب هذا العالم على أقساط لو أمكن...
فكل شيء يرهقني... حتى الشعرة البيضاء الوحيدة المكنونة في رأسي...

*****

ويحدث أن ينام النوم ونسهر...
ونحاول جاهدين إمساك طرف الحلم فلا نقدر...
يهرب ويتفتت كقطرة زئبق...
ويخبو رويدا كنور بعيد...
أنا أعاني إسهالا لغويا حادًا...
وأكتب أي شيء يخطر ببالي...
لكنني لم ألتجئ للطبيب، أكتفيت بصوتك المسجل على هاتفي وصور قديمة لنا في الكلية... بقايا نبضات معلقة...
لم تعد المحاضرات ممتعة وأنا أحضرها وحيدة على المدارج، " أخربش" حرف اسمك الأول كطفلة...
كل شيء تغير .. حتى الهواء، بات باردا موحشا خاليا من أنفاسك...
أنا أبحث عنك، وأتبع خطواتك... في الحانات البعيدة والأزقة المظلمة...
و يحدث أن أرى لمعان عينيك في رغوة كأسي... فأضحك حد الثمالة...
و يحدث أن أسمع بحة صوتك الصباحية في دندنات قيثارتي الصامتة من بعدك.. فأبكي حد الشتات...
و كلما ذبلت وردة على منضدتي... أفتقدك أكثر...
و أكتب على ورقة معلقة على ثلاجة مطبخي... "هناك أمل في أنني سأجدك اليوم..."
و أمضي يومي هائمة في العاصمة، علني أراك بين الزحام والضجيج...
و أبحث بعينين زائغتين في وجوه المارة...
و أعود ممزقة، بعضي- نار وبعضي رماد...
و أشد على خصري لينحصر الألم هناك فقط... وأحمي أطرافي بقميصك المشنوق على باب الحمام...
و أدخن...
على معدة خاوية وقلب يغمره الصدى... أدخن...
و يكاد الدخان يمحو وجهي فلا أراني...
أنظر إلى "portrait" درويش على خزانتي، وأردد بيته " يا ليتني حجر "...
لغيابك طعم غريب، مالح جدا حد المرارة...
اعتدته جدا حتى نسيت طعم الكرز...
الكرز الشهي، ذلك الذي كنت ألتهمه على ذقنك وبين شفتيك، أقضمه ببطء وأعصره بتأن حتى يسيل على عنقي...
وتبتل شامتي السوداء... لتكبر حدقتك البنية...و تزداد شهوة ورجولة...
سر فوق رمشي- ودس على فؤادي للوصول إن كنت ضائعا...
و لكن عد !
فقد تعبت من السفر، ومللت من طعم غيابك المالح وأعياني ألم خصري المشتاق لرقص أصابعك...
عد سريعا ولا تتركني أتدلّى من نافذة الإله، بين عجزي وقلة صبري...
كنت أظن...
كنت أظن أنني شفيت...
لكنك من أعاد إلي البكاء...
و كل هذا... كل هذا...
يصيبني باسهال لغوي حاد...
و يجعلني أكتب أي شيء...
عد سريعا من أجل القصيدة...
...
أقوم بكسل من فراشي، وأهمهم في أذن الجدار " هذه الروح لا تستيقظ إلا بعد الساعة صفر"...
أقصد المطبخ لتحضير فنجان قهوة...
ماكينة القهوة معطلة، وكل الأواني متسخة وليست لي رغبة في الجلي...
لا أريد أن ألامس الماء.. أريد أن أبقي رائحتك على جلدي لأكثر وقت ممكن...
تعتريني رغبة مشتعلة في الكتابة...
ولكني أحتاج كوبا ساخنا من القهوة لأحافظ على نسبة الكافيين في الدم ونسبة المرارة في حلقي ورائحة القهوة في غرفتي المشتاقة إلى عطرك... لتطغى على رائحة غيابك المفاجئ...
أفتح الراديو، وأجلس قبالة النافذة، أرى نفسي صدفة على انعكاس البلور... لم أرني منذ عشرة أيام تقريبا...
أقترب وأهمس " على الأقل نحفت قليلا"... أضحك بهستيريا وأرقص كالأطفال على موسيقى الجاز واهتز وارتعش وألتف على جرحي حتى أصاب بالدوار وأسقط...
و أغنّي دون أن أسمع صوتي... كلمات مقطعة لجاك برال أو لشارل ازنافور لا أعلم...
تختلط علي كل الأشياء في هذا العالم المزدحم وأدخل في دوامة من الأصوات والمشاهد...
صوت زخات المطر... عيناك... هفيف الأوراق... النشيد الوطني... شفتك السفلى... زغاريد أمي... ابتسامتك وأنت تعدّ شاماتي الأربعين... بكاء طفل... ضحكات في المطبخ... صوت الراديو... عضلات بطنك... غنائك في الحمام... خرير المياه... صياح الجارة... عيناك مرة أخرى... ثم أغفو...
على مكتبي، المثقل بكتب الشعر، أوراق كثيرة... بقايا هذياني الليلي وبدايات نعاس يزورني بإلحاح من حبات الدواء...
أجلس إلى مكتبي بصعوبة، أحمل ورقة عذراء لم تلطخها أناملي الدامية بعد وأحاول البحث عن أفضل وضعية للكتابة... أتمدد على فراشي، أجلس على الكرسي الهزاز، أتكأ على ظهر الكنبة... ولا كلمة...
غيابك يقيّد كل القوافي...
أريد أن أكتب أي شيء... أي شيء...
و لكني أحتاج كوبا ساخنا من القهوة...
و ماكينة القهوة معطلة...
و ليست لي رغبة في الجلي...
أريد أن أبقي رائحتك على جلدي... لأكثر وقت ممكن... على الأقل، حتى أنام... وأحلم بعينيك...
...آه من عينيك...

******

أجلس بالمقهى...
أضمد كفي بكوب من القهوة الساخنة...
أبعد الكرسي من أمامي كي لا يظنني الناس وحيدة تنتظر من لن يأتي...
أتفادى النظر إلى ساعتي اليدوية...
و أكتفي بتأمل العالم...
أنادي النادل.. ولا أطلب شيئا...
أكتفي بشرب قهوتي دون سكر...
علي أن أحافظ على معدل المرارة في حلقي...
علي أن أستشعر الألم أكثر...
لأستطيع الكتابة...
معي ما يكفي من البؤس لأكمل قصيدتي...
لكن ينقصني الإلهام...
أحتاج وميضا ساطعا ينير ذاكرتي للحظات فقط...
لأكتب...
أحتاج أي شيء يذكرني بك...
كحبة كرز مغرية... أو هفيف نسيم برائحة عطرك الخفيف والغامض...
عطرك الفرنسي الباهظ...
أريد أن أكتب أي شيء...

عن الألم الحلو الذي يصيب معدتي كلما رأيتك صدفة...
عن لائحة العادات السيئة التي علي أن أغيرها قبل حلول العام الجديد...
كأكلي للشكلاطة السمراء كل ليلة، وأنا المتابعة لبرنامج وثائقي عن معاناة أطفال البرازيل في جمع حبات الكاكاو...
كسهري الليلي أشاهد أفلاما صامتة وأخترع أحاديث الشخصيات وأصواتهم في رأسي... حتى أخالهم حقيقة...
كقراءتي لشاعر واحد وإيماني بإبداع البقية...
أريد أن أكتب أي شيء...
عن سقوطي من سلم الحالمين دون أن أحدث جلبة...
و عن مضغي للألوان الطازجة عوض الدواء وابتلاعها في محاولة لتلوين روحي...
عن تلك الحشرة الصغيرة المقلوبة على ظهرها في مكان ما من هذا العالم الواسع والشاسع، تحرك أرجلها في الهواء دون جدوى...
و عن حنفية الحمام الصدئة ومسمار الجدار الذي سقط في غفلة مني... وصورتنا ضاحكين في الإطار الخشبي...
و عن جلوسي الطويل على ناصية هذا الكون، أعد النجوم كطفلة وأنتظرك بفارغ القلب...

لقد كنت هناك...
أشتري تذكرة للمجهول بثمن باهظ يسوى عمري المنقضي- وأحلامي الوردية الساذجة، في عالم القطارات السريعة والأيادي الباردة التي تصافحني كل صباح، تلامس جسدي البالي وتهمل روحي الجائعة وترحل بعيدا بعيدا...
لقد كنت هناك أيضا، أبتسم للغرباء وأرسم قلوبا في الهواء لينقشع الضباب من أمامي ويصل وهج قلبي البسيط إليهم، علهم يفهمون ..
كنت هناك، أقف وحيدة وسط الزحام والضجيج أصلّي... والناس ماضون إلى الدنيا حاملين كل أمتعتهم وبيوتهم وأموالهم واختلافاتهم... وأنا أحمل قلبي... وأبتسم لينقشع الضباب...
لم أكن أصلي لنجاتهم، كنت أصلي لأصمد أكثر...
و يأتي القطار ويتجاوزني المارّة وتتجاوزني المدن الصاخبة والطرقات والأزمنة...
و أهتف لتنكسر المرايا من أمام الأنبياء والملوك والأمراء .. وأخيط جراحاتهم وحدي وأخلط دمائهم وأنثرها على الدروب الممتدة من قلبي وأغنّي " كسّروا كل المرايا... انزعوا كل الشظايا...و ازرعوها في جنبي... وادفنوني في الثنايا... إني حيّ بقلبي... "...
لقد كنت هناك أمزّق خرائط البلدان وأنفخها لتهبط على قلوب المذنبين أمثالي بردا وسلاما... وتحررهم من الأحلام... كنت هناك أخيط المسافات الوهمية وأسهر على راحة المسافرين الجدد وأربت على أكتافهم بيدي المثقلة بالدموع...
كنت هناك أوظب الحقائب وأملأها بالذكريات المخبئة في جوفي... وأسلمها للريح والمراكب والكواكب...
و لك أن ترى ضوء أحلامي، يعبرني ويرحل حيث الحدود المشعة ويخبو رويدا رويدا...
و لك أن تسمع الصدى والفراغ والغياب يشق المدى... وهفيف السنابل المشتاقة لأيادي الفقراء المجعدة والجافة...
و لك أن تحس الله يجول في المكان حزينا لكلوم الأرض المتقرحة...
كنت هناك أودع نفسي- وأستقبل النهايات اللاهثة خلف دخان القطار...
أجلس في قاعة الانتظار، أراقب الراحلين من وراء الوراء... ألتصق بالزجاج في حالة يائسة للانتماء إلى أي أحد... وأبكي أبكي... وأهرب أجري فوق دمي المنسكب... وأرمي فتات أحلامي على رصيف المحطة وأمسح السكك وألعها بحروف الأبجدية الحادة وأهجأ الرحيل بصوت الصمت...
لقد كنت هناك أغرق في وحدتي ولا أحد يلاحظني... أمسك قلبي بين يدي... وأبتسم لينقشع الضباب...
أتسول الحب في زمن السرعة... ومعجزة في زمن الأساطير... وإنسانية في زمن الحرب...
كنت هناك ألوح للمارة وأرقص على دوي القطار وخطوات الهاربين مني ومن قلبي الحيّ بين يديّ... ولا أعلم من يرحل عن الآخر، يرحلون عني برحيلهم أو أرحل عنهم ببقائي..
لقد كنت هناك... أرسم قلوبا في الهواء... وأبتسم لينقشع الضباب...

*****

أنا وحبة الأسبيرين نتبادل الحديث...
في غرفة مليئة بتفاصيلك الدقيقة...
وأحلام تحتضر على الأرضية المتسخة وأخرى مشنوقة على الجدار...
ماذا عساي أفعل بكل هذا الفراغ؟
وكل المساءات القادمة من دونك؟
أنا مريضة جدا...
أشعر بأنني أغرق في فراشي، أنا أسقط في هاوية سحيقة سوداء... وأرى السماء تبتعد أكثر...
و مثل وميض في العتمة... تأتيني رغبة غريبة في رسمك الآن... في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل...
أريد أن أعيد صقل وجهك كما أشاء...
و أن أمحو كل شاماتك التي تغريني وأغني...
أغني بصوت عال... بصوت يطغى على دقات قلبك النابضة على ورقي...
أغني وأمسك قلم الرصاص وأتجاهل يدي المرتعشة من عظمة جمالك...
و أمحو تفاصيلك كلها...
ليس علي أن أبحث عن ما يلهمني بعد الآن لأكتب...
يكفي أن أغمض عيني وأتذكر رائحتك الغامضة...
يكفي أن أعض شفتي السفلى وأعجن خصلات شعري بهدوء...
بهدوء...
لقد هيأت نفسي جيدا لكل هذه الوحدة...
الكثير من كتب الشعر النيئة... الكثير من الموسيقى الصاخبة والحزينة، الشكلاطة السمراء، السجائر الرخيصة... وقارورة عطرك الفرنسي...
و حبات دواء ملونة تساعدني على تذكر صوتك المتهكم والساخر من كل شيء...
أريد أن أتناول نفسي على العشاء هذه الليلة، أن أمضغ أصابعي النحيلة التي لطالما أحببتها...
أريد أن أنبت في دمك كسرطان وأدور في أركان جسدك راقصة بقميصي الشفاف...
أريد أن أنزلق بهدوء من هذا العالم وأسقط في الفضاء دون أن أحدث جلبة...
أريد أن أنحني فوق جرحي... وأتقيأ قبلاتك المسروقة من عمري ..
أريد...
أريد أن أنام بسكينة هذه الليلة... دون أن أفكر فيك... ودون أن أذكر نفسي- بأن الموت ليس أكثر ما يوجع في هذا العالم...
الوجع أن نموت من الحب ونصمت فجأة عن كل التساؤلات... ونكتفي بالغرق وحيدين...
أحيانا الغرق هو نجاتنا الوحيدة والأخيرة...
لكنني لن أنجو... فكل شيء يذكرني بك...
رائحة الفانيليا المتغلغلة بخصلات شعري الغجري بعد الحمام...
فراشي الدافئ ووسادتي القطنية...
أغاني شارل ازنافور وموسيقى بيتهوفن في المساءات الحزينة الممطرة...
الفراولة الطازجة، فنجاني المفضل وبخار قهوتي الصباحية...
ياسمينتي التي لم تكبر وزهرة القرنفل الموضوعة على منضدتي منذ عامين...
جدارية درويش التي أهديتني إياها في عيد ميلادي العشرين...
أبيات الشعر وموسيقى الأفلام التصويرية الهادئة...
رائحة التراب المبلل وبتلات الورود الندية...
تفاصيل وجهي المتعب وعيناي المشتاقتان...
أحمر الشفاه ومرآتي وأساوري...
أنا أراك في كل شيء...
أنت هنا... وأنا أشعر بأنفاسك الحارة خلفي تحرك خصلات شعري وتثير رائحة الفانيليا في الهواء...
و كصغير خائف من إبر الدواء... أنا أتحمل ألمي ولا أريد أن أشفى منك...
أريد قلبا جديدا فقط...
أريد قلبا نيئا...
فهذا القلب قد نضج منذ سنين ومضغته الدنيا وبصقته على جدران غريبة...فبات غريبا...
أريد لكل هذا الخيال الصارخ في رأسي أن يولد عاريا من كل المخاوف ويكبر أكثر...
كأن أرى الناس يموتون من الحب أو من فرط السعادة...
كأن تسقط علينا الغيوم بدل القنابل...
كأن ندفن في الهواء ونتحول إلى يرقات تلون هذا العالم وتطير هنا وهناك...
كأن يكبر هذا العالم بنا وبآلامنا حتى ينفقع كبثرة ونتحرر في الفضاء الخارجي...
كأن أتناول حلمي البسيط كحبة دواء وأنام غير عابئة بكوابيسي المدلاة على مكتبي...
أريد...
أريد أن أضع رأسي المليئة بالدوافع والرغبات على صدرك وأبكي... بلا سبب...
و أريدك أن تعجن خصلات شعري بين كفيك... حتى تتغلغل رائحة الفانيليا في الهواء...
أريدك أن تستنشقها...
أن تملأ بها صدرك... أكثر أكثر...
ثم أخنقك وأنام...
لكنني لا أستطيع...
فالدّنيا... كل الدّنيا... شامة سوداء على عنقك...

****
***

الساعة الثانية بعد منتصف الليل
حبة الأسبيرين الثانية
أغنية Conquistador
و طيف درويش يجوب الغرفة...

_____

صوت الموسيقى يزداد أكثر فأكثر...
كدبة ناتئة تنتفخ في الهواء...
و كراديو قديم جدا... ألتقط صوتك متقطعا مشوشا... وأحاول الكتابة...
أنت رجل مصنوع من عصارات الكرز المغري والشعر الذي نقرأه متسائلين "كيف يعلم الشاعر كل ذلك عني؟"
و أنا امرأة عادية... أدعي بأنني شاعرة هذا العصر... وأنا لا أفقه من الشعر شيئا سوى أنني أستطيع كتابة ديوان شعري كامل عن بحة صوتك في الصباح...
أنا لا أستطيع التخلص منك رغم هذا العار الذي يشقني ويشنقني...
أنا أرعاك كعامل وفي ليده المبتورة...
أريد أن أنحني فوق المرحاض وأبصق هذه " الغصة " لأتمكن من البوح بكل أسراري لاله الشعر هذه الليلة...
لقد أزهرت شجرة اللوز، وكبرت صفصافة دارنا... والنبتة المشنوقة على جدار بيتنا القديم مازلت تتوجع طيبا...
و النحل يجول في رأسي، وشفاهي لم تعد معسولة...
أناشيدك تتردد في الساحات والمدن، وأشعاري صامتة لا تتنفس...
و هذا الليل يغريني... وغيابك يقيد القوافي على مكتبي...
لم أكتب شيئا يا حبيبي... لكني أبيت حالمة بانتهاء القصيدة...
كبرت جدا... وبت أجول شوارع العاصمة وحدي ومن شدة حنيني إليك، أفتش جيوبي باحثة عن لمساتك الدافئة...
أمسك بيدي جيدا، سأعبر جسر الثلاثين بكعبي العالي... لا أريد أن أغرق مرة أخرى ويمتص الماء أحلامي وتصير البحار وردية ويلومني البحارة ..
أمسك بيدي جيدا وأخبرني، هل شممت أحلامي الوردية؟ لها رائحة عطرك الفرنسي الباهظ...
عطرك الخفيف والغامض...
غامض كأنفاسك التي تكسر بلور الأمان وتدمر حواجزي المنتقاة وتحقق فرضية التداعي...
لأهرب منك إلي... وأضم نفسي بين ذراعيّ...و أتعرّى من همومي وأنام حالمة بانتهاء القصيدة...
لكن... هنالك أمل في النبتة المشنوقة على جدار بيتنا القديم... وهناك أمل لألحق بذاكرتي، لقد عبأت كل حقائبي بتفاصيلك... وسأسافر الليلة لألحق المشاة... وكل الهاربين من الحنين...
و دع الأبدية تحيك نهاياتنا بنقاء دموعنا العذبة .. ولا تخف... سينتصر الشعر وستذكر الطريق إلى البيت يوما... وسأكمل قصيدتي...
أما الآن فدع الليل يزحف إلى فراشي البارد واسدل ستائر الوفاء كلها واشرب نخب النعاس ونم خفيفا من كل هذه القيود...

*****

أنا الآن في الحافلة...
اخترت المقعد الأقرب إلى الباب لأنني أخاف عمق الأشياء والأماكن، خاصة حين أجدني محاطة بأناس لا أعرفهم...
يخنقني الاكتظاظ... وتخيفني عيون الناس المتحركة بسرعة والملتهمة للمشاهد بفضول وتطفل ونظراتهم الفوضوية المشوشة لبصري وبصيرتي....
السائق يقود بكل أريحية، رغم صعوبة السياقة في العاصمة وزحمة الطرقات...
هو يعرف الطريق جيدا ككف يده، وأنا أرى الدنيا لأول مرة...
على يميني شباك كبير، مرئي لكنه صلب وداكن، أضع رأسي على الزجاج بقوة، في محاولة يائسة للاندماج مع العالم الخارجي... لكن السرعة تمنعني من المرور...
أنا محبوسة في حافلة هي أشبه بخردة متحركة، يسوقها رجل يعرف الطريق الذي أجهله، محاطة بغرباء تلتهمني عيونهم...
أحاول الهرب من الشباك، أحاول الاندماج مع العالم الخارجي...
أنا محاطة بالكثير من الناس الثرثارين...
والكلمات تغتصب الهواء...
كلمات بذيئة مقززة...
ترسم دماميلا كبيرة ومقيحة على حلمي البسيط...
و أراك صدفة... وأصرخ في السائق الذي يقود بسرعة " توقف!" .. لكنني لا أسمع صوتي الضائع في الغوغاء...
و يمضي السائق، وتطول الطريق، وتكبر الدماميل ويصغر حلمي...
و يخيل إلي أنني إخترعتك لأتنفس...
فهواء الحافلة عفن ومقزز...
ينزل الناس ويصعد الناس وتنتهي المحطات والطرقات... وأبقى أنا...
و يسألني السائق " إلى أين إذا؟"
فيألمني السؤال ويقتلني الجواب....
و أهمس " لا أعرف "...

******

تخيل...
لو جف دمي العاري صباحا...
و غطتني السماء بطيور من دخان...
لتستر قلبي المفقوع...
تخيل...
لو غنيت قصيدتي الأولى...
على مهل...
و مسحت دموع عشاق الليل بمنديلي...
و كتبت على جدران الأزقة شعرا...
و طرقت أبواب الوحيدين الصدئة...
و رقصت حافية على الجرح...
تخيل...
لو أعددت موتي في قدري...
و استطعت لملمة بعضي قبل الرحيل...
و استنشقت الصنوبر برهة...
و استمعت لصوت أمي توقضني...
و قبلت يديها فقط...
و ضغطت على وجعي بالسكين والرمح...
و صبرت...
و ابتسمت...
أما كان الموت أرحم؟

...

"لا شيء يحدث هنا "...
الأمنيات المسروقة المخبئة في جيبي تضمحل وتصغر، والرغبات تطحن روحي بين روتين النهار وأرق الليل...
" لا شيء يحدث هنا "... يقول صوت في الممر
...
هذه الحياة يصيبها العطب فجأة... فتتوقف كساعة جدارية معلقة على جدار وهمي وتشنق أشواقي السرية بحبل أزرق باهت...
الغربان تنقر رأسي منذ يومين، وأنا أغذيها أفكاري بصمت... وتجوع روحي في صمت... ويسخر الشبع منا...
قلبي مهترئ كجورب، تملأه التقيحات والدماميل، ومع ذلك هو يحملني في الثنايا ويسير بي إلى غد غير مؤجل...
عقلي مكسو بالطحالب اللزجة، تسقط عنه الأفكار الجاهزة وتتدحرج، فأدوسها دون قصد... وتدمي قلبي أكثر...
(أصفع نفسي للمرة الثانية)
"لا شيء يحدث هنا "... يقترب الصوت أكثر ..
علي أن أعبر هذا الممر الطويل، علي أن أتجاهل رائحة عطرك الفرنسي الغامض من ورائي... وصوت الجارة المثير للصداع... وقهقهات زميلاتي، وعلبة الدواء...
أنا أتقدم... علي أن أبلغ الثلاجة، علي أن أحفظ قلبي في مكان بارد وآمن...
ساقي المبتورة تلاحقني، والجدار يتكأ على ظهري وأنفاسي تهرب مع الريح...
أنفي يصغر فجأة و" الغصة" المغروسة في حلقي تكبر وتتمدد...
"لا شيء يحدث هنا "...
تتسارع الأقدام وتقترب مني... أنا أختنق... علي أن أبلغ الثلاجة...
علي أن أحفظ قلبي في مكان بارد وآمن...
قلبي المهترئ كجورب...
الصواعق الكهربائية تلتصق بصدري...
إبر الدواء تسري في دمي الهادئ...
أنا أغفو خفيفة من قيودي...
أنا لا أشعر بشيء...
مريح هو " اللاشعور"...
لا شيء يحدث هنا...
كل شيء هادئ...
أيادي الأطباء تخبو رويدا...
رائحة الكحول والأدوية تطغى على عطرك...
و أنا أنام لأول مرة وقلبي معي، في مكان بارد وآمن...
لا شيء يحدث هنا...
Coupez !
انتهى المشهد.

فاز هذا النصّ بالجائزة الأولى لملتقى تونس الفتاة للأدبيات الناشئات "يراع" المنعقد في دورته الثانية سنة 2016

صلوات اللقاء الأخير

بقلم: **أسامة نبيل نباوي**

شاعر وناشط في المجتمع المدني

كحلم طويل المدى
قد تجاهل كل صنوف الغياب
و قلبي عنيد الهوى..
يقدس حب العذاب
أراها
تراقب ليل المجاز الحزين المحمل
دمعا
و خيبات عشق قديم يحارب
فرض البقاء
أراها
ترتق جرح القصيد
تلملم رجع الصدى
في الأغاني
تجمع دهشة طفل
يجرب لعبة خلق المعاني ...
تصلي غراما كإبن و أم على ضفة
النهر
يصرخ "إغريق" تلك السماء
»ترى من تكون ؟...
ترى هي من ؟...
من تكون
أ أم ترمم إبنا ليحمل عبئ الزمان
أ بنت تبيع الأماني "
ترى من تكون ؟
على ضفة النهر تشدو الخطيئة حبا
تهيم بليلي
تغني تشمع صدري
و تسرق مني رحيق الشفاه
و تسأل
ربي الشفاء
من الحب و الأغنيات ....
إذا ما استقر الرحيل صباحا أراها
و لا أبصر الشوق
لا أبصر صوت الشتاء
و تجلس فوق السحاب
قريبا... هناك
تمر مشطا على شعرها كي
تزيل غبار المساء
من الحلم
تنثر بعضه توتا على وجنتيها
و بعضه زهرا عصي الذبول على
عنقي
نم فلا وطن لك "
لا حائط للبكاء
و لا طلقة قد تصحح
موت الصباح ... و نم
يا حبيبي

لعلك تزهر حلما نقيا
سننجب طفلا ينام بجوف العبارة
يحلم أن الزهور تحي الشهيد
و تلك الطيور
تحلق فوق البلاد
لتوقظ ثورة كل المعاني
و ينهض وهو يقاوم
وجهه يحضن بسمة شعب و خده
يرسم وردة سور القصيدة
سنقطفها من يد الشعر يوما

أفاقا من الحلم دون
إشارة
شوق
سترحل بعد قليل
لتجهض
حلمي
و تخلع عنها ظلال المنام
و ما بين بيني
و بين انتظار الصباح و موتي
تمر...
تحط رياح الجنوب على كتفي
في دمائي تصلي الطيور
ترقص أكشاك بيع الجرائد
ترمي صحيفة عشق بعين السماء
و تلقي قصيد غرام
قديم
لذاك الممر
أراها كبعد الرؤى في المنام
و عند القطار
تفيض المعاني
يضج الكلام حريق الحناجر
بين الشفاه
تدفق موجة حب

أنام لأقسم بالنجم و الأحجيات
و أقسم بالعود و الحلم و الأمنيات
وأقسم أيضا بلحن القوافي
بحائي و بائي و كافي
أحبك

يرمي الزمان بلحظة عشق
فيسحب كل الملامح
أغفوا قليلا بصورة وجهك
أحلم أني أعيش و أحيا
بقرب جناحك
أهلك بين شفاه القصيد

افيق عليا قداسة همسك
ذاب حنينا إلينا
ولكن
فوق سواد الطريق
وريدة هم
بنفسجة من رحيق السحاب
وزغرودة من ندى
تتراقص حول الغيوم
و بسمة أم
و ألف قرنفلة في المدى من ربيع بعيد
المنال
وشارة نصر

و رفرفة من أمل ...

شارك هذا النصّ في الدور النهائي من "أكاديميّة الشعراء"، وهي تظاهرة نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة، يوم 23 ديسمبر 2018

لغة الأموات

قَصَفُوا دَمِي وَضَعُوا"الحجارَة في فَمِي"
سرقُوا انتـمائي ها أنا لا مُنْتَـــمِ
فلْتُدْركِـــينِي يـا ريـــاحُ بـغـــيْمـــةٍ
علَّ الغُيومَ تَحنُّ لي كيْ أحتمِـي
عـــلَّ المسافاتِ البعـــيدةَ تنْجلِـــي
بتَواضُعٍ و تصيرُ شبرًا في دمِـي
الآنَ لا أوتارَ لِي الاَّ رُعُودٍ
أَعْلنَتْ خَوْفَ المدينةِ تحْتَهَا
والبرْقُ في رُوحِي يُجَدِّدُ شَكْلَهُ
والماءُ في لُغَتِي يحَاولُ نَحْتَهَا
الآنَ أُطْلِقُ في الحَنَاجِرِ كَيْ أَمُوتَ
هُنا أحدّقُ صَوْبَ مَوتِي
يَنْظُرُ الأَمْواتُ لِي و كَأَنَّنِي جارٌ قَدِيمٌ،
وِجْهَةٌ تعِبَتْ برِسْمَتِهَا وجوهُ اللاَفتَاتِ
وكنْتُ أَعْلَمُ أنَّنِي في اللَّامَسَارِ فلا طريقَ ولا جِهاتْ .
لَا تقْرؤُوا جِهَتِي أنا الآنَ آخرُ اللَّاواقِفِينَ على التَّنَاصِ
أنَا المُزيَّفُ بالغِيَابِ
نَأَيتُ عَنْ جَسَدٍ تَزَرْكَشَ بالْقَصَاصِ
وجِئْتُ مُحْتَشِدًا بِدَمْعِي

غَيْرَ أنَّ الدَّهْرَ جَفَّفَ رِيقَهُ ومَعِي :
إناءٌ مِنْ ذُنُوبٍ
رُخْصَةٌ للمَوْتِ
مِيلاَدٌ كَثِيرٌفِي البيَاضِ
ومِيتَةٌ في كلِّ مَرَّهْ.

الآنَ مُتُّ على جَبِينِي حُجَّةٌ لمْ يكْتشفْهَا الشَّكُّ بَعْدُ
ومُتُّ في قلبِي قُبورٌ لمْ يطَأْهَا المَوْتُ بَعْدُ
وطُفْتُ بِي...
كمْ طُفتُ بِي ...
كَمْ طُفْتُ بِي...

لاَ شَيْء حَوْلي غيْرَ قلْبٍ مِنْ زُجَاجٍ
مثْقلٍ بتَمِيمةٍ وُضِعَتْ علَى قبْرِي
وأُمنِيَةٍ عَجُوزٍ خَانهَا ذاك
الزَّمَانُ
تَحقَّقَتْ لتمرَّ عَبْرِي
كُنْتُ أمْشِي دونَ بوصَلةٍ لأقنعَ خُطْوَتِي
أنِّي عَبَرْتُ إلى السُّكُونِ
فَلا تخَافُوا إنَّكُمْ مَوْتَى
هُنَاكَ على لُهَاثِ الأرْضِ أحْيَاءٌ
وهُمْ...
هُمْ خَائفُونْ.
لمْ أنْتبِهْ للنَّارِ حينَ توضَّأتْ مِنْ دَمْعَتِي
لمْ أنْتبِهْ لِيَدِ الوَسَاوِسِ وهِيَ تُغْلِقُ تَوْبَتِي
لَمْ أنْتَبِهْ...
لَمْ أنتبَهْ...
لَمْ أنتَبهْ...

وَرَسَمْتُ وجْهي بِالرَّمَادِ و رُحْتُ أَبْحَثُ عَنْ خُطايَ
ببَعْضِ أجْزَائِي
إلَـــــــــهِـــي...
لا مَلامِحَ في دمِي غيرَ الضَّبابِ
فمنْ أنَا ؟
منْ أينَ جئْتُ وكيْفَ؟
جِئْتُ كمَا إنزياحٍ للْقصيدَةِ أوْ صدًى للبرْقِ
أوْ كَرِسَالةٍ مِنْ دُونِ خَتْمٍ في البريدِ
وجئتُ من أقْصَى الزَّمَانِ الى مَكَانٍ
إذْ تَقُولُ النَّارُ فيهِ تَوَاضُعًا "هلْ مِنْ مَزِيدٍ"

مَالَنَا نتحسَّسُ النِيرَانَ في أحشَائِنَا لنَدُسَّ فيهَا مَوْتَنَا الأزَلِيَّ !
قُولُوا مالنَا نَبْنِي على جِهَةِ الغُروبِ مسافةً !
سنقُولُ يومًا ليتَنَا كُنَّا تُرابْ.
وَأَتَتْ تشُقُّ مَنَامتِي تلْكَ التي كانتْ تُعَلِّمُنِي المحبَّةَ
ثمَّ صِرْتُ بهَا نَبِيًّا
أيْقظتْ لُغَتِي وأجْنِحَةَ المَساءِ على يديَّ
أتتْ تُمشِّطُ غَفْوَتِي،
لتُزيحَ عنِّي غَفْلَتِي ، قالتْ: أيَا
طِفْلَ القصيدَةِ قُمْ أيا ابن دمِـي قُـم... !
قُمْ كيْ تَموتَ لمرَّةٍ أُخْرَى لأنَّـــــ
ـكَ تـسْـــتعِـيـدُ جهنَّـمًا بـجـهنَّـم
ولأنَّنِي المُنْدَسُّ في دَمِهَا أُصَـــ
ـدِّقُ قوْلَـهَا لـيُـكـذِّبَ الغَـدُ مُعْظمِـي
الآنَ تُنْقذُنِي براءَةُ ثَـغْـــــــرِهَا
لأَصِـيرَ مـثْلَ الشّعْـرِأعْرُجُ مِـنْ فَمِـي

شارك هذا النصّ في الدور النهائي من "أكاديميّة الشعراء"، وهي تظاهرة نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة، يوم 23 ديسمبر 2018، وفاز صاحبه بالجائزة الأولى للمسابقة

بقلم: **أنيس الهاني**
مختص في علم الاجتماع ومتحصل على عدة جوائز أدبية في الشعر الفصيح

لعبتنا الأولى

بقلم: سوار الغابري

أستاذة لغة أنجليزيّة-عربيّة/ صحفيّة/ باحثة في الاتّصال السياسي

siwarghabri65@gmail.com

حين لعبنا لعبتنا الأولى

لم يعثروا عليك.

كانوا جميعهم في الأعلى

الملائكة وما سجدوا

العصفور الغراب

الماء الذي اتضح أنه نار

ادم يقضم تفاحته

وحدنا كنا في الأسفل معك

ننفث في زهرة شيطانك

والزغب يتطاير.

رأيت فيما رأيت

رأيت أقواما

تدوس ظل الماذن حين تمر

تخلع نعالها أمام المساجد

ولا تخلعها في حضرتك.

للرب حزنه أيضا

سهرت مرة

أطيب خاطره

قال مغفرتي لا يطلبها أحد.

شارك هذا النصّ في الدور النهائي من "أكاديميّة الشعراء"، وهي تظاهرة نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة، يوم 23 ديسمبر 2018

وقفةٌ على شرفةِ الذاكرة

بقلم: **ياسين الطنفوري**
شاعر تونسي

يُربّي خطايَ التيهُ
بعدُ صبيّةٌ
تظنّ بـأنّ التيهَ أوّل بسملَةْ

وعن شرفةِ الماضي، أهشّ مظلّةً
أشمّ فتاتَ الأمسِ
علّه بوصلَةْ

كأنّي أداري الريحَ لحظةَ عزفِها
على نوتةِ الأرجاءِ ...
تبكي مُدلّلَةْ

تُدير رمـالا كي تضلّل أينَهـا
كـحلمٍ بخيلٍ
كي يُحجّبَ منزِلَه

كـبيتٍ بلا سقفٍ يجمّع حزنَه
يـمدّ به الـبنّاءَ
حتّى يُكمّلَه

وحيدًا ..
بلا شبّاكِ ذاكرةٍ
كما توحّد ماءٌ إذ أراد تبلّلَه

كأيّ كمانٍ ..
صوّف الحزنَ صمتُه
تصوّفتُ فرطَ الذكريات المعطّلةْ

أمرّ بحاناتِ الـخيالِ مُفتّشًا
عن الوعيِ
كـالحلاجِ حتى أقوّلَه

يُحدّثُني طفلٌ .. تعربَد داخلي
لماذا :
تركتَ العمرَ يغمِد معوَلَه ؟

تركتَ حصانَ الوقتِ قيدَ رباطِه
رحلتَ وحيدًا ..
هل ترتّحُ أرجُلَهْ ؟

تُعقرِبُ ساعاتَ المسافةِ وِهلةً
بـصورةِ عشّاقٍ ...
تأخّرَ عن وَلَهْ

بعيدًا عن الدنيا تُدوزِنُ خطوَك
كـأنّك جـنّانٌ يُغادِرُ جدوَلَهْ

تجرّ مرايا الماءِ خلفَك وجهَها
يُناديك عُطشانا عسى أن تُسيّلَه

ترهّل عمرُ القمحِ وهو يلوّح
إليك ...
ألى غيمٍ أبى أن يُسنبِلَه

شارك هذا النصّ في الدور النهائي من "أكاديميّة الشعراء"، وهي تظاهرة نظّمتها جمعيّة تونس الفتاة، يوم 23 ديسمبر 2018

*

جمعية تونس الفتاة

الهاتف: 29797625

البريد الالكتروني: contact@tounesaf.org

الموقع: www.tounesaf.org

فايسبوك: facebook.com/tounesalfatet

تويتر: twitter.com/tounesalfatet

انستغرام: @tounesaf